مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي - الكويت

مذكرات
محمد الأمين الشنقيطي

مؤسس مدرسة النجاة في الزبير

(كتبها في مدينة عنيزة سنة ١٣٣٦هـ - ١٩١٥م)

اعتنى بها

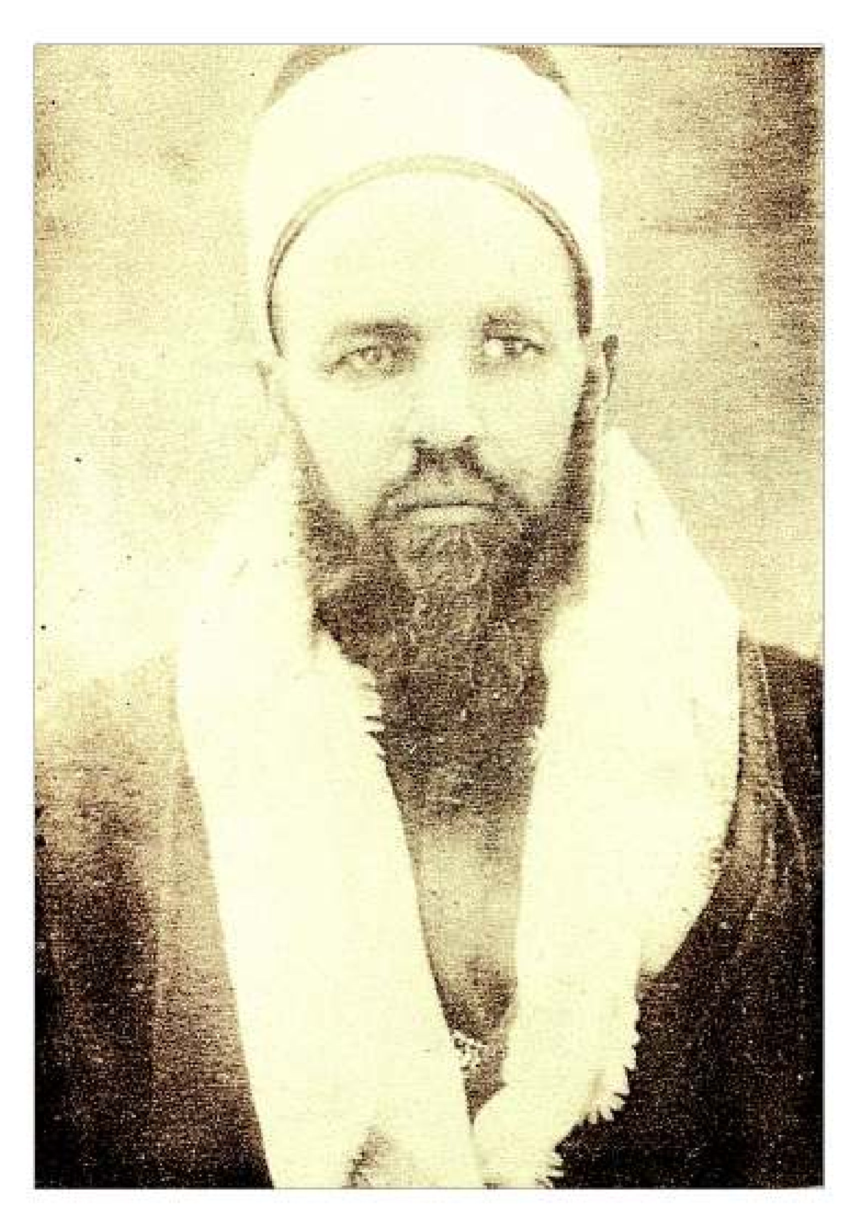
عبدالرحمن الشبيلي

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

الطبعـة الأولـى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



محمد الأمين الشنقيطي

(١٢٩٣ ـ ١٣٥١هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩٣٢م)



الجمهورية العراقية
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية
سلسلة الكتب الحديثة
٢٠

من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة

الشيخ محمد أمين الشنقيطي

١٢٩٣ - ١٣٥١هـ / ١٨٧٦ - ١٩٣٢م

تأليف
عبد اللطيف الدليشي الخالدي

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

الكتاب العشرون

المحتويـــــات

الموضـــوع **صفحة**

هــذه المذكّــرات

عبدالرحمن الشبيلي

بسم الله الرحمن الرحيم

كنا منذ الصغر، نسمع كثيراً في نجد وفي بلدان الخليج عن مدرسة النجاة وشهرتها، في الزبير بجنوب العراق، وعن مؤسسها الشيخ محمد أمين الشنقيطي، المولود في بلاد شنقيط (موريتانيا) سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) والمتوفّى في الزبير سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) عن ستة وخمسين عاماً، وهو المعروف في بلاده - تمييزاً له عن غيره من الشناقطة - باسم محمد أمين فال الخير الحَسَني الشنقيطي.

وحدثت في الأعوام القليلة الماضية مصادفات قادتني إلى التعمّق في سيرته، كان أولها ما كتبه الشيخ حمد

الجاسر في كتابه «من سوانح الذكريات» الذي أعطى معلومات موجزة عنه وعن وجود كتاب في سيرته، أصدرته وزارة الأوقاف العراقية من تأليف عبداللطيف الدليشي (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م)، والمعروف أن الدليشي قد جايل الشنقيطي، وكان يعيش في البصرة وتوفي في بغداد عام ١٤١٦هـ (١٩٩٥م).

وتبيّن من قراءة سيرته، أن الشنقيطي تردّد على الكويت والزبير، وكان على صلة قويّة بشخصيّات معروفة من عنيزة في كلٍّ من البصرة والزبير، وأنه انهمك في بعض الممارسات السياسية ضد الاحتلال البريطاني منحازاً إلى الأتراك، ثم توارى عن أنظار الإنجليز فاتجه إلى بغداد فحائل، ثم أقام مدة عامين في عنيزة في ضيافة أحد أعيانها من زملائه، والتقى خلال إقامته تلك بالملك عبدالعزيز، كما تبيّن أنه كتب مذكراته (موضوع هذا الكتاب) في عنيزة في نحو سبعين صفحة، ودرس ودرّس فيها، فحضر دروس الشيخين: علي أبو وادي، وصالح العثمان القاضي، في حين ذُكر أن شيخ عنيزة الشهير

العلّامة عبدالرحمن السعدي، كان ممن تعلّم على يديه في أثناء إقامته تلك، وأن عدداً من روّاد التعليم الحديث في عنيزة ـ ومنهم الأستاذان صالح بن ناصر الصالح وشقيقه عبدالمحسن ـ كانوا قد درسوا على يديه في مدرسة النجاة، وبسبب من صلات الشيخ الشنقيطي تلك بعنيزة جاءت فكرة مشاركتي في ملتقى عنيزة الثالث للثقافة عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) بمحاضرة مطبوعة عنه.

وفي مساء يوم ١٤٣٤/٥/٢٩هـ (٢٠١٣/٤/٩م) أُقيم في مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي في الكويت معرض عن مدرسة النجاة ومؤسسها، تزامناً مع محاضرة ألقيتها عن جريدة «الدستور» الصادرة في البصرة عام ١٩١٢م، وضمّ المعرضُ وثائقَ لمدرسة النجاة كانت مكتبة البابطين قد اقتنتها ثم أصدرتها في كتاب وُزّع في تلك الليلة، كما وزّعت المكتبة محاضرتي الآنفة الذكر عن الشنقيطي.

وفي شهر المحرم ١٤٣٥هـ (نوفمبر عام ٢٠١٣م) أقامت جامعة شنقيط العصرية في نواكشوط بموريتانيا ندوةً علميّةً مدتها يومان، خصّصتها للتعريف بالجهود

الفكرية للعلماء الشناقطة في المشرق العربي، ومن بينهم مؤسس «النجاة»، وقد شاركت فيها بترشيح من الأستاذ عبدالعزيز البابطين، الذي كنت أشاطره الاهتمام بسيرة الشنقيطي وبتاريخ مدرسته، وفي تلك الندوة أُلقيت ثلاث محاضرات من بينها محاضرتي السابقةعن سيرة هذا المربّي المهاجر وسيرة غيره.

وفي صباح يوم الإثنين ١٤٣٥/٥/٢٣هـ (٢٠١٤/٣/٢٤م) وضمن مهرجان ربيع الشعر العربي السابع بالكويت، استضافت مكتبة البابطين محاضرة ألقاها د. محمد المختار ولد أباه رئيس جامعة شنقيط العصرية عن الجهود الفكرية للعلماء الشناقطة في المشرق العربي، وقد تولّيت فيها التعريف بالمحاضر والتمهيد للموضوع.

وامتداداً لاهتمامها بسيرة الشيخ الشنقيطي وبتاريخ مدرسة النجاة، فكّرت مكتبة البابطين بمناسبة الذكرى المئويّة لافتتاح المدرسةبطباعة مذكرات الشنقيطي كاملة وبشكل يشمل ما دار حولها من تعليقات وما كتب عليها من حواشٍ وإضافات، وذلك امتداداً لما قام به عبداللطيف

الدليشي عندما نشر في كتابه أجزاء منتقاةً منها أوسعَها بالتعليقات والشروحات، وقد رغبت المكتبة مني تدقيقها ومراجعتها بنيّة إصدارها في هذا الكتاب، الذي تضمّن المواد التالية ذات الصلة بالمذكّرات:

١ ـ تقديماً للأستاذ عبدالعزيز سعود البابطين، المعروف باهتماماته المستمرّة بسيرة الشيخ الشنقيطي وبتاريخ مدرسة النجاة، وكان أحد الدارسين فيها في عهد مديرها الثاني ناصر الأحمد، وقد اقتنى كثيراً من وثائقها وخصص لها مكاناً مستقلّاً متاحاً لاطّلاع القرّاء والباحثين في مكتبة البابطين المركزية للشعر العربي في دولة الكويت.

٢ ـ مقدمةً لرئيس جامعة شنقيط العصرية د. محمد المختار ولد أباه، الذي يتبنّى عقد ندوات للتعريف بالدور الثقافي والمعرفي للعلماء الشناقطة في المشرق العربي على مرّ العصور.

٣ ـ مقالاً بعنوان «الشنقيطي ومدرسة النجاة» للدكتور علي أباحسين، نشره في مجلة دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م).

٤ ـ مذكّرات الشيخ الشنقيطي (موضوع هذا الكتاب) المحفوظة ضمن مقتنيات الأستاذ البابطين، ومن المعلوم كما سبق أن الدليشي نشر في كتابه جزءاً منها ثم أضاف إليها تتمّةً كتبَها تلميذُه ثم خليفته الشيخ ناصر إبراهيم الأحمد، وقد علّق عليهما الدليشي بالكثير من الهوامش والمتون، بل وبالهوامش على الهوامش، فقمت بما يلزم عمله من مقارنة النصوص الشعرية المختلفة الروايات وحذف المتكرر واستكمال النواقص.

على أن هذه المذكّرات، وهي الأثر المخطوط شبه الوحيد الذي خلّفه مغطّياً فيه محطات حياته منذ ولادته وحتى إقامته في عنيزة عام ١٣٣٦هـ (١٩١٥م)؛ لم تتناول كثيراً من جوانب حياته وبخاصةٍ ذكرياته عن عنيزة وأهلها وتجربته فيما بعد في إنشاء مؤسسة النجاة ومدرستها في السنوات اللاحقة، وهو نقص قام الشيخ ناصر الأحمد المتوفّى بعده بثلاثين عاماً (١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م) بإتمامه بإيجاز بناءً على طلب الدليشي، في بضع صفحات أثبت مختصرها في كتابه، ونقلتها هنا.

٥ ـ نص المحاضرة التي ألقيتها عن الشيخ الشنقيطي في مهرجان عنيزة الثقافي الثالث سنة ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) وفي ندوة جامعة شنقيط العصرية في المحرم من عام ١٤٣٥هـ (نوفمبر عام ٢٠١٣م) وقد اعتمدتُ في كتابتها على معلوماتي عن عنيزة وعلى ما تضمّنه كتاب الدليشي.

ولا بدّ من الإشارة في الختام، إلى أن معظم الشعراء الشناقطة الذين ورد ذكرهم في الذكريات قد تَرْجَمَتْ لهم كتب التراجم، وبخاصة كتاب الوسيط ومعجم البابطين لشعراء العربية، مما أغنى عن الإطالة والتكرار.

والمؤمّل أن يأتي هذا الكتاب ـ الذي يحتوي على مذكرات الشيخ الشنقيطي وتتمتها وعلى ما كُتب عليها من حواشٍ وتعليقات، وهو جهد مني لا يرقى إلى درجة التحقيق لعدم خبرتي بذلك ـ أن يأتي، متمّماً للكتاب التحقيقي المتميّز الذي ألّفه الأديب العراقي عبداللطيف الدليشي، وأصدرته وزارة الأوقاف العراقية عام ١٤٠١هـ (١٩٨١م) بعنوان: الشيخ محمد أمين الشنقيطي؛ حياته، مذكّراته، علاقته بملوك وشيوخ الجزيرة العربيّة.

وبعد :

فما كان لهذا العمل أن يكتمل، دون أن تشارك فيه ـ بجهد مشكور ـ مكتبة البابطين في الكويت، باهتمام خاص من مديرتها الأستاذة سعاد عبدالله العتيقي، ومن الباحثين والمساندين الإداريين فيها.

ع . ش

الرياض: ١٤٣٥/١٠/٠١هـ

الموافـق: ٢٠١٤/٠٧/٢٨م



عاشـــق العلـــم

عبدالعزيز سعود البابطين

يقدم لنا فضيلة الشيخ محمد أمين الشنقيطي في سيرته مثلاً باهراً لرجل عشق العلم واتخذ منه قبلته ومدار حياته، ولم تحرف مغريات الحياة سفينته عن وجهتها الوحيدة، وقد عبّر عن هذا العشق في أبيات له تغزّل فيها بلوح العلم الذي رافقه في يفاعته:

عِـــمْ صـبـاحـاً أفـلـحـتَ كـــلَّ فـلاح
فـيـكَ يـــالـــوحُ لم أطــــع أيَّ لاحِ
أنـــت يـــا لـــوحُ صـاحـبـي وأنـيـســي
وشــفـائـي مـــن عـلـتـي ولــواحــي

أبصر محمد أمين نور الحياة في مضارب قبيلته «الحَسَنيين» سنة ١٨٧٩م في صحراء شنقيط، تلك القبيلة التي تنتمي إلى

أشراف العرب والتي قيل فيها: «إن الشعر العربي بنى بيته فيها» في إحدى المحاضر (الكتاتيب) التي انتشرت في بوادي شنقيط أقبل في طفولته على ارتشاف العلم فحفظ القرآن الكريم، ودرس مبادئ الفقه والسيرة النبوية، وقرأ دواوين الشعر القديم، ولم يقنع بما حَصَّلهُ من زاد علمي في بلده بل وجد في الرحلة سبيلاً إلى استكمال علمه، وبدأ رحلته وهو في الخامسة والعشرين من عمره متوجهاً إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، وكانت رحلة الحج تتيح للمرتحل المرور بالمراكز العلمية المنتشرة على مسار رحلته، والتعرف إلى علمائها، والتزوّد بما تحفل به هذه المراكز من أصناف العلوم.

اتجه الشنقيطي أولاً إلى مدينة فاس واتصل فيها ببعض الحلقات العلمية، وتابع منها رحلته إلى مصر وأزهرها، والتقى فيها ببعض علماء مصر وعلماء شنقيط المهاجرين، ثم حط رحاله في الحرمين الشريفين ليدرس على علماء الحجاز الحديث النبوي والفقه والمغازي والأنساب والنحو، وبعد أن تضلّع بالعلوم العربية من منابعها الأصيلة واستكمل مرحلة التعلّم، وجد أن رسالته تتمثل في نشر العلم في كل مكان يصل إليه.

وهنا تبدأ صفحة جديدة في حياة الشنقيطي انتقل فيها من التعلُّم إلى التعليم، وكان في المرحلتين متصوّفاً في العلم يجد راحته الكبرى في تلقّي العلم وفي نشره للراغبين فيه، وعرفت بلدة عنيزة في المملكة العربية السعودية، التي مكث فيها مدة عامين، وفي دولة الكويت التي زارها أكثر من مرة فضله العلمي ودروسه ومحاضراته التي كان يلقيها في المساجد والمدارس والتي كانت تلقى قبولاً كبيرًا.

وكان إنجازه الكبير في بلدة الزبير التي كانت مستقرّه الأخير إذ أسهم في تأسيس مدرسة النجاة الأهلية وفي إدارتها، تلك المدرسة التي تخرّج منها آلاف الطلبة الذين نشروا العلم في أرجاء الجزيرة العربية وفي العراق.

تميّزت هذه المدرسة عن مثيلاتها في ذلك الزمن في أنها جمعت في مناهجها الدراسية بين العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية والعلوم الدنيوية النافعة، بهدف إعداد جيل يساير عصره، وكان الشنقيطي في دروسه محافظاً على عقيدة السلف الصالح، مناهضاً للبدع والخرافات التي تسلّلت إلى عقول وسلوك المتديّنين، متفهماً لضرورات العصر ففكر في إنشاء

أول مدرسة لتعليم البنات في فترة كان هذا التعليم يعدّ من المحظورات، فكان الشنقيطي معلّماً ومصلحاً في الوقت ذاته، ورائداً من رواد التعليم الحديث.

وتحمّل الشنقيطي صابراً ما قوبل به من الجامدين والمتشددين من هجوم وتشويه لسيرته وصل إلى حدّ الاعتداء عليه، وكان الشنقيطي في مسيرته العلمية مثالاً للعالم الزاهد، وحين ألمَّت بمدرسة النجاة عند تأسيسها ضائقة مالية تبّرع برواتبه لمدة ثمانية وعشرين شهراً.

ظَلَّ الشنقيطي مثابراً على رسالته التعليمية والإصلاحية إلى أن وافته المنية سنة ١٩٣٢م، ودفن في مقبرة الحسن البصري في الزبير بعيداً عن وطنه.

وإذ نستعيد بهذا الكتاب ذكرى هذا الرجل الجليل الذي نذر حياته للعلم والتعليم وحاول جاهداً أن يبدّد ظلمة الجهل والخرافة والتعصب عن أفق المشرق العربي، فإننا نأمل أن يجد فيه الجيل الجديد نبراساً يحتذى في الإقبال على العلم والإخلاص له.

عبدالعزيز سعود البابطين

تقديم

بقلم / د. محمد المختار ولد أبّاه
رئيس جامعة شنقيط العصرية، نواكشوط

ليس هذا الكتاب أول تحفة يجود بها علينا الباحث والسياسي الخبير الأصيل، الأستاذ د. عبدالرحمن الشبيلي، مد الله في عمره، فإلقاء نظرة على إنتاجه الغني يوضح لنا جلياً أنه قد قرّب إلينا أعلام مصره وعصره؛ إذ قام بكتابة تراجمهم في أسلوب سهل ممتنع، جمع بين دقة الأوصاف، وإبراز الخصائص والميزات، ذلك أنه كاتب أُعْطِيَ ملكوت الكتابة المبدعة، وسرّ صناعة الصحافة الممتعة، فكلما جُلتُ مع سَوانح أقلامه وأفكاره أو وقفت على تجاربه المنيرة ووقفاته المثيرة، استشعرْتُ لذة الإفادة، سواءٌ كنت معه في تاريخ الإعلام

أو مع أعـلام بلا إعـلام، أو مع حـوادث الأيـام، فكأني حين أقرؤُها أستظهر عبقريات علامة الجزيرة حمد الجاسر، أو رحلات محمد بن ناصر العبودي، أو أدبيات محمود شوقي الأيوبي، وعبدالله بن خميس، أو مغامرات عبدالله فيلبي في الربع الخالي، أو أصحاب محمد أسد في طريقه إلى مكة المكرمة.

وإن من آخر هذه التحف النفيسة، ما كتبه عن عالم شنقيطي هـو محمد بـن الأمـين بـن فـال الخـير المشهور بمؤسس مدرسة النجاة في الزبير، وهي المؤسسة التي كان لها أثر بالغ في النهوض بالعلوم الإسلامية، والتي تخرج منها مجموعة من أعلام الخليج والأحساء ونجد ومربّيها.

فلقد لمَّ الأستاذ الشبيلي شتات آثار هذا العالم، فحقق مذكراته، وضمّ إليها ما أضافه تلميذه ناصر الأحمد، ومضامين مصنّف عبداللطيف الدليشي الخالدي، ونقّب عما كُتب عنه في مجلات عصره، حتى قدّم لنا صورة متكاملة عن حياة ابن فال الخير، وذلك على غرار الأبحاث المعتمدة التي عوّدنا عليها في تناوله

لمشاهير العلماء والكُتاب.

ولقد مرت حياة ابن فال الخير بمراحل لكل منها خصائصها ؛ فالمرحلة الأولى بدأت منذ نشأته في منطقة العقل في جنوب بلاد شنقيط، حيث ولد سنة ١٢٩٣هـ وترعرع في وسط قبيلته الحسنيين الذين اشتهروا بعلوم القرآن الكريم والتبحُّر في اللغة العربية وجودة الشعر، حتى قال شاعرهم:

إنـا بَني حسـن دلّـت فصـاحتنا
أنـا إلى العرب الأقحاح ننتسـب
إنْ لم تقـم بَيِّنـاتٌ أننـا عـربُ
ففـي اللسـان بيـان أننـا عـرب

ويقول الشيخ الشنقيطي راوياً عن الشيخ سيدي باب: «إن الشعر بنى بيته في قبيلة الحسنيين وفرَّق أبناءه في القبائل الأخرى، ومما يفخر به أحدهم قوله:

مِصْداقُ أني كريمُ العيصِ[1] منتسب
إلى قريشٍ بيـوتِ العـزِّ والجَـدَلِ

(١) العيص: الأصل.

نَسْـجي القريضَ وإحْكامي قوافيَهِ
ولا أميِّـز بـين العَـطْـفِ والـبَـدَلِ

لقد تربى محمد الأمـين الشنقيطي في هذه البيئة، ورضع من أخلافها مآثر أجداده وعلوم أسلافه، واستوعب مقررات مدرسته المحظرية، فحفظ القرآن الكريم، ودرس المتون التي تتناول مبادئ المباحث الفقهية والسيرة النبوية، كما قرأ دواوين الشعر القديم، مثل الشعراء الستة المشهورين، وحفظ مختارات شعر قومه الكثير.

هذه هي المرحلة الأولى التي انتهت بانتقاله إلى رحلته إلى الحج سنة ١٣١٨هـ.

وتتمثل المرحلة الثانية من حياة الشنقيطي في حوادث هذه الرحلة التي بدأها وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، ومرّ في أثنائها أولاً بالمغرب، وكان في نيته المقام في فاس للتعلّم، غير أن إصابته بمرض الجدري منعته من ذلك، إلا أنه اتصل ببعض الحلقات العلمية التابعة للشيخ ماء العينين، فذكر مطارحاته مع بعض الأدباء في هذه الزاوية، ومحاوراته مع الشيخ محمد الهيب بن الشيخ ماء العينين.

وفي هذه المرحلة روى لنا العلامة الشنقيطي نماذج من شعره، الذي أقرَّ أنه غير راضٍ عنه كل الرضا ولو أنه كان ناقداً ماهراً يميّز بين جيد الشعر وركيكه، ومما مدح به الشيخ ماء العينين قوله:

أفي[1] ثناني عن إطالتي الثنا
وموّرثي عن مدحك التقصيرا

إني إذا حاولت مدحاً لم أطق
عن بعض ما حاولته التعبيرا

يا مَنْ لَو انَّ جريراً أصبح رائعاً
من مدحه المعشار فات جريرا

منّي إليك تحيةٌ لو شمَّها
عُرْبُ العذارى ما استطبن عبيرا

كما مدحه بقصيدة أخرى يقول في مطلعها:

زارتْهُ مِخْلافُ وعد البَيْن مخْلابُه
والفجرُ مُنْصدِعٌ في الأُفْقِ كذَّابُهْ

(١) ترد في وجوه عدة كما سيأتي.

ولقد صدق العلامة الشنقيطي في حكمه على شعره؛ إذ تتأكد خبرته بآليته اللغوية، ووقوفه دون فحول شعراء قومه، وقد نلاحظ أنه استسلم لمنهجه العلمي، ولملكته في الوعظ والإرشاد، فلا نرى له شعراً يذكر، سوى بعض الأبيات التي يعتذر فيها عن عودته إلى وطنه، أو التي بعث بها إلى عالم شنقيطي ثالث هو أحمد بن الأمين العلوي، والتي يقول فيها:

مني لأحمد في «فروق» سلامُ
عطر عليه من البهاء لِثامُ

فأجابه ابن الأمين بأبيات ذكر منها قوله:

من ماجد يبني القصائدَ فكرهُ
مبنى تَقَاصَرُ دونه الأهرام

ولعل هذا هو البيت الوحيد الذي بقي لنا من الإنتاج الشعري لأحمد بن الأمين، رائد تدوين الشعر الشنقيطي في كتابه «الوسيط».

أو قصيدته التي مدح بها الشريفَ عوناً الحسنيَّ، بأمر من شيخه أحمد سالم بن الحسن الفاضلي الديماني،

وقد أورد مطلعها، وهو:

سـلامٌ أريجُ المسـك من دون نشـره

ويُنْسِـي نديم الخمرِ صَهْباءَ خمرِهِ

وقد ختمها بقوله:

خـذوهـا عـلـى عـلّاتـهـا، وعليكُمُ

سـلام أريـجُ المسـك من دون نشرِهِ

ولقد أبدت المرحلة الأولى من رحلة الشيخ الشنقيطي أنه لا يرغب في أن يكون شاعراً محترفاً مثل كثير من أبناء عمومته، ولكن مقامه في القاهرة أثناء هذه الرحلة أظهر لنا أنه كان راوياً متميزاً.

ولقد أتيح للعلامة الشنقيطي أن يلتقي في مصر بشنقيطي آخر ذائع الصيت، هو اللغوي الكبير محمد محمود بن التلاميد، وجرت بينهما مناقشات أدبية، أظهر فيها العلامة محمد الأمين قوة حافظته، وسعة اطلاعه على شعر أدباء قبيلته، فاستنشده ابنُ التلاميد بعضَها، فكان مما أنشده قصيدة ابن حنبل البائية المشهورة التي

يقول في أولها:

أضـرم الهـم سـحيراً فالتهـبْ
لـمع بـرق بِـرُبَـيّـات الـذهـبْ

ومنها قوله:

إن خير الزاد يا صاحي التقـى
فبه المجـد التمسْ لا بالنسبْ
إن تـقـل منـعـتـنـا درسـه
أزم الدّهر والاعـوام الشـهب
قلت هل يحتال في دفع العصا
من أظلّتـه الحسـامات القُضـب
ولَـو ارسـلت عنانـي فـي مـدى
ما بـدا لي من أسـاليب العـرب
ومـن الـحـث لأربـاب الـنُهـى
لقريـت الأذن منهـا بالعجـب
وهـو دون العلـم عنقـا مغـرب
فـاطّـلـبـه فَـلَـنـعْـمَ الـمـطّـلـبُ

وقد أوردها الشنقيطي كاملة في مذكراته.

ثم روى له قطعته التي يحكي فيها قصته مع لوحه الذي كان له صاحباً وأنيساً، والتي يقول فيها:

عِــمْ صـبـاحـاً أفـلـحـت كـلُّ فـلاحِ
فـيـكَ يـالـوحُ لـم أطـع ألـف لاحِ
أنــت يــالـوحُ صـاحـبي وأنـيـسـي
وشـفـائـي مـن غـلّـتـي ولُـواحـي
فانتصــاح إمرئ يـروم اعتيــاضي
طلبَ الـوفـرِ منـك شـرّ انتصاحِ
بـك لا بـالـثـرا كـلـفْـتُ قـديـمـاً
ومُـحـيّـاك لا وجــوه الـمـلاحِ

ويقول في آخرها:

بـل يـمـيـنـاً بـواردات الـبـطاح
يـتـباريــن ضُـمَّـرًا كـالـقِـداحِ
أفتــأ الدهـرَ هـاجـراً للغـواني
ووصــــولاً لـلـكـتـب والألـــواحِ

ولما أنشده منها قوله:

في عقـود النضار والدر منها
جيد جيـداء من ظِبـاء رُماح

قال له ابن التلاميد: إن الشاعر غلط في نسبة الظباء إلى رُماح، وإنما الظباء تنسب إلى وجرة، كما تنسب المها إلى رماح.

ويقول محمد الأمين الشنقيطي الشاب إنه سمع فوائد كثيرة من ابن التلاميد، وتحقق مما يعزى له من كثرة تتبع أغلاط كبار العلماء في النحو أمثال سيبويه والكسائي، ومما قال له: إن ابن عمك عبدالله بن أحمدام قد أخطأ في قوله:

هي العرب تأتي أوجهاً في كلامها
لذلك أمسى بعض أخبار معشرِ

وألف «لماذا» في النوادر كررت
يتيه بها بعض النحاة الأكابرِ

يقولون «ماذا» لا ترى في الأواخر
وهل تجهل الأشياخ ما في النوادرِ

ولما استفسره ابن فال الخير عن محلِّ الغلط، قال: إنه في تسمية كتاب الأمالي بالنوادر، وهو غلط شائع عند علماء القبلة (يعني جنوب بلاد شنقيط) يقولون كتاب النوادر يعنون بذلك أمالي أبي علي القالي، وأجابه ابن فال الخير بأن المعني قد يكون نوادر ابن أبي زيد، فأجابه

ابن التلاميد: إن نوادر ابن أبي زيد لا توجد في القبلة.

ولعل العالمين الجليلين لم يتنبَّها إلى أن نوادر ابن أبي زيد كتاب فقه، وليس كتاب لغة، وأن الخلاف في موقع «لماذا» مبسوط في مناظرة شهيرة بين ابن أبي ربيع السبتي ومالك بن المرحل.

وعندما أزمع ابن فال الخير الرحيل إلى الحجاز حاول ابن التلاميد أن يُحَمِّله رسالة تتضمن بعض أشعاره في هجاء خصومه في الحجاز، فاعتذر له عن حمل الحالقة (إفساد ذات البين) إلى بلاد الحرمين.

وهكذا أتيح لمحمد الأمين الشنقيطي أن يقري آذان المصريين بروائع أشعار قبيلته الحسنيين، الذين كانوا سَدَنَةَ اللغة العربية في بلاد شنقيط، وكما يقول الشنقيطي إن الشعر أكثرُ فيهم من غيرهم، وذكر بعض هؤلاء الشعراء، أمثال عبدالله بن أحمدام، ومحمد بن السالم الذي يقول:

النحو علم كفاني من تعلمه

مج الثدي ثدي الهيف من حسن

فهو يفخر باعتزازه برضع لبان العربية من أمهاته، والمختار بن المعلّى، صاحب اللامية المشهورة التي أولها:

ألمّا على دور بعمار من جمل
وأخرى لدى الوادي إلى جانب الرمل
عفتهن أيدي الدهر بعدي وإنما
يد الدهر خرقا ما تجدّ كما تبلي

ولعلَّ الشيخَ محمداً الأمين الشنقيطي لم تدركه شهرة ابن المختار ابن المعلى الشاعر المعروف، أمير الشعراء في عصره، ألا وهو محمد النان الذي نافس ابن حنبل في رمليّته[1]، وهي قصيدة طويلة يقول فيها:

بالأخاديدِ رسومٌ وخيَمْ
غيَّرتهُنَّ مُربّاتُ الدِّيَمْ
وبشرقيِّ الأميليحِ إلى
جنبِهِ الغربيِّ آيٌ كالرِّمَم
وعلى الحفرة مغنًى داثرٌ
كبقايا الوحْيِ في بطن القُضُم

(١) على بحر الرمل.

لعبتْ بعدي يـدُ الدهر بهـــا
إن للدهـــر صـروفًــا وشِــيَم
أنكرتْهـــا العيــنُ إلا دمـــنـةً
وبقــايــا من رمـــادٍ وحُـــمم
غنيــتْ نعــمٌ بهــا في مَيْعـــة
من نعيــمٍ وشـــبابٍ مُطْـرَهِم
وبريعـــان صِـبًــا يقتـــادُه
عنفـوان اللهـوِ لـو لـم ينحسـم
غيــر أن الدهر خـبٌّ مــــولعٌ
بـالغوانـي والغرانيــقِ الهُضُـم
لا يـزال الدهـرُ فـي أبنـــائه
يطلب الـوِتْـر بنقْـض المنـبرم
وبتَوْهيــن مُمَـرّاتِ القــــوى
وبتشـتيـت الجـميـع الملــتئم
وبإذلال العزيـــز الـمُحْتَبــى
بـذُرا الـمـلكِ وإرغـامِ الأشـــم
وبتسليـطِ البلى العاتـي عـلـى
جدَّة الغَـضّ ومَثْـأى مـــا يُرَم
وارتجع المُنْفَس الموهوبَ من
راحةَ الحوز وطـرْحِ الملتقـم
وبتنغيـصِ ملـــذّاتِ الفتـــى
وبتكديــر مســرات النِّعـــم

فكأنا لم تُجمِّع شملَنا
دِمَنُ الحيِّ بأتراب نُعم
بخدالِ السُّوق في أحشائها
والدَّماليجُ ارتواءٌ وهَضَم
تتثنَّى بينها نعمٌ كما
هزَّ غصنَ البان عرنينُ النَّسَم
يضحك الإغْريضُ في أنيابها
والثنايا في الأقاحي تبتسم
وكأن العسلَ الماذيَّ في
قُلَّة المُشتار فوها لو لُثِم
ولها فرعٌ يُغشِّي مَتْنَها
مُسبَكرٌّ واردٌ مثل الفحم
أُخِذَ العهدُ على نعم فلم
تَرعَ ميثاقًا ولم تشفِ ألم

... إلى آخر القصيدة

وفي المرحلة الثالثة من مسار الشنقيطي أقام سنوات قلائل بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، أدى فيها نسكه، واستكمل معارفه، فدرس على علماء الحجاز، أمثال المحدث الشهير محمد بن علي بن طاهر الوتري المدني، وأديب الحجاز في عهده عبد الجليل برّادة، ثم تتلمذ لِعَالميْنِ

آخرَيْن هما: أحمد سالم بن الحسن الفاضلي الديماني، الذي أَخذ عنه منظومَتَيّ: البدوي في المغازي وأنساب العرب، وجزءاً من كتاب أسس المسالك في فقه الإمام مالك، وتتلمذ على شعيب الدكالي الذي قرأ عليه ألفية ابن مالك بتمامها، ورسالة أبي زيد، وجملاً من مختصر خليل ومختصر ابن الحاجب، وشمائل الترمذي، وشفاء القاضي عياض، وصحيح مسلم، وسنن النسائي، وأبي داود، وموطأ الإمام مالك، وجملة من الشاطبية، وهذا الشيخ هو الذي وجهه إلى سلفية ابن تيمية.

ولما حصّل ما كان يصبو إليه من علم ومعرفة بدأت المرحلة الرابعة من حياته فكانت مرحلة العطاء العلمي، وهي الفترة الأخيرة التي قضاها بين الكويت وعنيزة وبلدة الزبير في جنوب العراق.

ولسنا نحتاج إلى إطالة الحديث عن هذه المرحلة من حياة العلامة التي كانت حافلة بالنشاط التربوي والجهاد والاصطدام بالتقليديين وبعض الشيوخ في الكويت؛ مما سبب له مشاكل عدة، وتعرّض لمضايقات عنيفة، لكنه

صبر وصابر حتى ترك سُمْعة حسنة، واعترافاً بما أسدى للمنطقة من إسهام في الحقل التربوي والمشاركة في تأسيس المدارس في الكويت، وفي عنيزة التي مكث فيها نحواً من سنتين، كما اقترن اسمه بمدرسة النجاة في الزبير، وهي مؤسسة رائدة في التعليم، تخرَّج فيها كثير من أعلام التربية والفكر في الزبير وعموم بلدان الخليج والأحساء ونجد، ومن الذين انتسبوا إليها كذلك الشاعر المجيد والناقد البصير عبدالعزيز بن سعود البابطين، الذي أولى اعتناءً خاصاً بتراث الشنقيطي.

هذه هي باختصار ملامح من حياة هذا العالم الفذّ، الذي أسهم في إحياء نهضة علمية في الخليج، والتي يعود الفضل للأستاذ د. عبدالرحمن الشبيلي في أن يجدد معالمها ويضعها أمام أعين القراء في حُلَّةٍ قشيبة وجميلة في مظهرها ومفيدة في محتواها، فله الشكر والتقدير.

محمد المختار ولد أبّاه

نواكشوط، ١/٩/١٤٣٥هـ

٢٠١٤/٦/٢٥م

الشـنقيطي

ومدرسة النجاة في الزبير

د. علي أباحسين[١]

قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز:
﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾
(الأحزاب: ٢٣).

على ضفاف المحيط الأطلسي، وعلى مقربة من منطلق قادة الإسلام الذين خرجوا من الجزيرة العربية، وهم يتوجهون صوب بلاد المغرب؛ ليرفعوا راية التمدّن العربي الإسلامي على أرض أوروبا، ومن إقليم شنقيط في المغرب الأقصى؛ حيث وطأت سنابك خيل المسلمين الأوائل أرضها،

(١) سعودي المنشأ والدراسة، مدير مركز الوثائق في ديوان ولي عهد البحرين، والمقال منشور في مجلة الدارة كما سلف.

وهي تسابق الريح يقودها طارق بن زياد وموسى بن نصير، وعقبة بن نافع الذي وجّه عنان فرسه نحو بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ولسان حاله يقول: «لو أن أرضاً وراءك يا بحر، لخضتك حتى أنشر الإسلام هناك أو أموت دونه».

وكان الفتح العظيم يصحبه فتح علمي، فما أن يستقر الإسلام في بلد، إلا ومساجد تبنى، ومدارس تشيّد، وجامعات تزخر بطلاب العلم ومكتبات تحوي كنوز المخطوطات.

ومن هناك من أرض شنقيط، خرج محمد أمين، وعادةُ أهلِ هذا البلد أن يقترن اسم مولودهم بمحمد فهو من خير الأسماء، فأمين اسمه مضاف إليه محمد، وهو من بني الحسن، أو ما يلفظ بالبربرية الجنوبية (ايذا بالحسن) ومعنى (ايذا = بنو) وهي قبيلة ظهر منها شيوخ أجلّاء وعلماء أعلام خدموا العلم وأهله، ومنهم الشيخ محمد أمين الشنقيطي أحد طلاب الحرم المكي الشريف، والدارس في كتاب «الوسيط في تراجم أدباء

شنقيط»[١] يجد خير دليل على ما نقول.

ولد محمد أمين الشنقيطي في شنقيط سنة ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م) ولد الطفل الذي سيكون له شأن في تطوّر العلم والجهاد في سبيل الله وإرساء سفينة النجاة في أي بلاد يحل فيها، وشنقيط من بادية مراكش[٢] المشرفة على البحر المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غرباً، حيث يسود مناخ البحر الأبيض بربيعه الدافئ وشتائه المطير وأشجاره الباسقات من البرتقال والليمون وسائر الحمضيات، وفيها التين والزيتون والمروج الخضراء، وهناك درس الشنقيطي في كتاتيبها ومدارسها التي كانت تحتل مجموعة من الخيام الناصعة البياض، فالهواء الطلق والشمس الدافئة والفضاء الفسيح.

وفي الطبيعة يتلقى الطلاب دروساً في الدين واللغة والحساب وأخبار الأمم وسِيَر الملوك، وقد وصف كتاب

(١) تأليف أحمد الأمين الشنقيطي، صدر عام ١٩١١م، وهو من أشهر الكتب التي تناولت الأدب الشنقيطي.

(٢) كانت مراكش تطلق قديماً على مدينة مراكش وعلى المملكة المغربية عموماً.

«الوسيط» تلك المدارس وصفا مسهباً، فلا يعجب المرء حينئذ مما للبيئة الدراسية من أثر فعال في تقدم الفرد وهو يتلقى العلوم والأدب في الطبيعة، فلا جدران تحدّد أفق تفكيره، ولا أبواب تمنعه من الخرق والدخول، بل تتمثل الحرية في طلب العلم في أجلى مظاهرها، دون قيود أو حدود.

وقد كان الطرطوشي صاحب كتاب «سراج الملوك» يعلّم تلامذته في غابة على الطبيعة حتى بلغ عددهم المئات، ولم يلبث الشاب محمد أمين أن أسس مدرسة من الخيام وصفها لي الدكتور تقي الدين الهلالي[1] فكان يطعم تلامذته ويسقيهم ويكسوهم أحياناً، فأما طعامهم فبضعة بقرات حلوب أو نوق أو ماشية يجلبها مَن كان في سعة من الطلاب لشيخهم وللأقران من التلاميذ، وهنا يعيش الجميع من غذاء واحد ويشتركون في خدمة النوق والبقرات ويشربون من لبن حلايب الشيخ ويعيشون تحت

(١) عالم سلفي مغربي، له مؤلفات كثيرة، أقام بضع سنوات في المدينة المنورة، تزوّج ابنة الشنقيطي، توفي في الدار البيضاء عام ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

سقف الخيمة، فالجو نقي والطعام مغذٍّ ومقوٍّ وشهي، فكأنهم في معسكر كشفي تربطهم رابطة العلم وهم ينهلون عن شيخهم الدرس.

كانت تلك هي الكتاتيب التي تخرّج منها الشيخ محمد أمين الشنقيطي، ونهل فيها من مَعين العلم. كان مجتهداً في دروسه وفكره لا يميل إلى التقليد ولا يتقيّد بالتمذهب، ويرى أن نشر العلم وتعليمه في ديارات المسلمين أفضل الأعمال وأبرُّها، وهي التي تخلد ذكرى الإنسان على مرّ العصور والأجيال، حتى إذا ما كانت إرادة رب السماء وحان وقت الترحال بعد أن زوّد نفسه بالعلم وهو ذخيرة المعلم وزاد العالم في كل آن، عندئذ يركب الشيخ الجليل سفينة النجاة من شنقيط التي حمل اسمها وخلّدها عبر التاريخ في بلاد المغرب، ذكرى الشيخ الشنقيطي العالم مع جملة ممن خرّجتهم تلك الفساطيط من الخيام فسارت بعلمهم الركبان، ومنذ أكثر من نصف قرن من الزمان أخذ العالم المؤمن برسالة العلم يجوب البلدان مشرّقاً تارة ومغرّباً أخرى، معلّماً حيناً ومرشداً ومتعلّماً

ومجاهداً يحارب الجهل والجاهلية أحياناً كثيرة.

تلقّى فضيلة الشيخ محمد أمين الشنقيطي علومه في بلاده، ثم اتجه سنة ١٣٢٨هـ صوب مكة المكرمة في الشرق، نحو سراج الدنيا ومصباح الخلق؛ ليؤدي فريضة الحج ويزور مسجد المصطفى ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ فيجعل من هناك المنطلق الأول للمشروع العلمي، وهو ينثر المعرفة بين طلابه في قلب الجزيرة العربية وإلى أطرافها، يجوبها بقلب ينبض بالإيمان فيبني صرحاً للعلم لا زالت أمارته شاهدة للعيان تذكّرنا بالعلماء العاملين.

وفي حرم المسجد الحرام بمكة المكرمة، وعند باب «زيادة» أحد أبواب الحرم المكّي، يتلقّى الشيخ محمد أمين الشنقيطي العلم على شيخه شعيب المغربي، حيث قال الشيخ عبدالستار الدهلوي في مخطوطته «فيض الملك المتعالي بأنباء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي»[1] المحفوظة في مكتبة الحرم الشريف «أجاز شعيب محمد أمين الشنقيطي».

(١) حقّقه د. عبدالملك بن دهيش، وطبع عام ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

وكتب لنا من عاصره ونثق به أن علياً البسام[1] توجه إلى المدينة المنورة سنة ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) واجتمع مع الشيخ الزغيبي[2] وفي أثناء المحادثة فيما بينهما؛ سأل الشيخ علي البسام عن الشنقيطي الذي كان يدرس معه عند الشيخ شعيب في باب «زيادة» فقال علي: كنا ثلاثة أصناف؛ منا من عنده علم ولكن علمه أزيد من عقليته، وعندنا من عنده علم ولكن علمه أقل مما يستحقه، وهذا الشيخ محمد أمين الشنقيطي له علم غزير وعقل راجح، فقد تضلّع بالعربية وتمكّن من نحوها وصرفها وعروضها ومن العلوم الشرعية، فتخرّج على علماء المغاربة في شنقيط وما حولها ومشايخ الحرم المكي الشريف.

أما الشيخ الشنقيطي موضوع بحثنا هذا، فهو غير محمد الأمين المتوفى سنة (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م) والذي ترجم له الدهلوي، وليس بالشنقيطي محمد محمود

(١) بحسب د. أحمد عبدالعزيز البسام، قد يكون علي العبدالله العبدالرحمن البسام، المولود في عنيزة ثم سكن الزبير، وتوفي عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.

(٢) هو الشيخ صالح بن عبدالله الزغيبي، إمام وخطيب المسجد النبوي، المولود في عنيزة، والمتوفى في المدينة المنورة عام ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م.

المتوفى بالمدينة المنورة ممن ورد تاريخ حياته في كتاب «فيض الملك المتعالي» فقد أنجبت شنقيط علماء حفظ المترجمون تراجم لهم .

أما الشيخ محمد أمين الشنقيطي موضوع بحثنا، فقد تخرّج من مدرسة الحرم المكي الجامعة، تلك المدرسة التي بقيت مصدر إشعاع فكري يفد إليها طلاب العلم من أقاصي المشرق ومن المغرب الأقصى ليتعلموا ويتخرجوا على مشايخ هناك لا يحصيهم إلا اللّه في أحقاب التاريخ الإسلامي.

ومن هناك، ينطلق الطلاب ليصبحوا علماء في أرض اللّه الواسعة، ومنهم الشيخ الشنقيطي الذي اتجه صوب الشرق يجاهد في ميدان العلم وسلاحه الإيمان وعتاده العقيدة الصادقة، فلم يكتف بالتعليم فحسب، بل وجد أن تأسيس المدارس على النهج السلفي خير دعامة للحفاظ على العلم القرآني، وسيكون له أبناء بررة يقوّمون هذه المدارس ويغذّونها من بعده، وقد حقق اللّه أمنية الرجل وخلفه طلابه، فكانوا خير خلف لخير سلف.

ورحل الشيخ إلى مصر فأخذ من علماء الأزهر، وجلس هناك في رواق المغاربة شاباً يتلقى المزيد من العلم وتصدر للتدريس في دار الدعوة والإرشاد بمصر، وممن أخذ عنه أحد أبناء آل شاكر.

وفي بلاد نجد، أخذ عن شيخ من مشايخ مدينة عنيزة، وهو الشيخ أبو وادي[١]، إذ درس عليهم صحيح البخاري في الحديث، وقرأ على قاضي عنيزة الشيخ صالح عثمان القاضي[٢] صحيح مسلم، ولما تمكّن من العلوم العربية والشرعية بدأ في نشر المعرفة وكل البلاد العربية بلاده، فأخذ يعلّم اللغة العربية في بيت له في عنيزة قرب بيت محمد السليمان الحمدان[٣]، ثم اتجه إلى الكويت متخذاً من المساجد منابر للوعظ والإرشاد، ورحل إلى الأحساء؛ حيث درس فيها على بعض مشايخها ولم يَبْرَحْها حتى

(١) هو الشيخ علي بن ناصر أبو وادي، توفي عام ١٣٦١هـ - ١٩٤١م.

(٢) من أشهر مشايخ عنيزة، توفي عام ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م، وخلفه الشيخ عبدالرحمن السعدي (المتوفى عام ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م).

(٣) أحد الأصفياء المبكرين للملك عبدالعزيز، والأخ الأكبر لوزير المالية الأقدم عبدالله السليمان الحمدان، أسرة من عنيزة يقيم معظمها حالياً في جدة، حيث تعرف باسم السليمان، كتب عنها حمد الجاسر وعبدالرحمن الرويشد وغيرهما.

عام ستة وعشرين وثلثمائة وألف (١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م). وذكر لنا أن الشيخ فيروز التميمي الأحسائي كان أحد مشايخه، ولدى البحث وجدت أن محمد بن عبدالله بن فيروز التميمي الأحسائي الحنبلي ربما يكون هو شيخه، فقد أورد ترجمته الشيخ عبدالستار الدهلوي دون ذكر تلامذته، ولكن من سِنِيِّ الوفاة يمكن استنتاج ذلك.

وألقى الشيخ محمد أمين الشنقيطي عصا الترحال في بلدة الزبير، وذلك بطلب من الشيخ مزعل السعدون، وبترشيح من الشيخ شعيب شيخ الحرم المكي الشريف، ليقوم بالإمامة والتدريس في مسجد مزعل في الزبير والذي لا يزال يحمل اسمه، وكانت شهادة الشيخ شعيب لتلميذه محمد أمين الشنقيطي أَنْ كتب للشيخ مزعل قوله: «إنني أرشح أحد تلامذتي وهو الشنقيطي والذي أعتمد عليه بالحفظ والفهم»، وعلى هذا الأساس توجه إلى الزبير.

وقد وصل الشنقيطي مبعوثاً من قبل شيخ الحرم المكي شعيب الدكالي المغربي الذي توجه إلى المغرب ليصبح رئيس قضاة مراكش، أو ما يسمونه شيخ الإسلام في بلاد المغاربة.

وَبِـذَا شَعَّ نـور من العلم من حـرم مكة المكرمة إلى بلاد العراق، وأقبل طلاب العلم يسألون عن الشيء الذي يتمناه فيقول لهم العلامة الشنقيطي «الشيء الذي أتمناه في حياتي أن يكون في الحرم المكي إمام واحد» وكان أربعة أئمة يؤمّون المسلمين في صلواتهم حسب المذاهب الأربعة، وشاء اللّه تعالى أن يحقق ما يصبو إليه المعلم والعالم العامل الشيخ الشنقيطي، فتحققت أمنيته في عهد المغفور له صقر الجزيرة العربية عبدالعزيز آل سعود، فأصبح هناك إمام واحد للمسلمين وهم يتوجهون للّه الواحد الأحد، وسوف نستعرض آثاره العلمية ومؤسساته التعليمية وجهاده في سبيلها.

لقد شهد الحرم المكي عدداً لا يحصيه إلا اللّه من العلماء وطلاب العلم، ومنهم شيخنا الشنقيطي الذي تخرّج من الحـرم المكـي، فاتجـه الشيـخ محمد أمـين الشنقيطي نحو قصبة الزبير[١] ليؤمّ الناس ويرشدهم ويعلمهم في مسجد مزعل باشا، ووصل الشيخ ووجد

(١) تعبير تراثي، يقصد به مقر الحاكم، يكون غالباً في وسط المدينة محاطاً بسور.

إماماً قد عيّن مكانه بعد أن استطال مؤسس المسجد مدة التحاقه، هذا الإمام هو الشيخ محمد بن رابح[(١)] وهنا تبدو التضحية ونكران الذات والروح الإسلامية العالية، حينما أخذ كلٌّ من الشيخين يلحُّ على الآخر أن يتسلم منصب التدريس في البلد وإمامة المسجد، وأخذ الشنقيطي يعقد ندوات التعليم بعد صلاة العشاء يحدث الناس ويعظهم ويلقي المحاضرات، متخذاً من المساجد المتعددة في بلدة الزبير أماكن للوعظ والتدريس والتوجيه نحو مستقبل علمي مشرق، والأهالي يحلّقون حوله في كل مسجد يحدث فيه، وما كان من أهل البلد إلا أن تبرّعوا له براتب شهري ترغيباً للعالم في البقاء بين ظهرانيهم بعد أن وجدوا أن عنده علماً نافعاً، وسعوا له في الزواج فحقق اللّه سعيهم وصاهرهم واتخذ من مسجد آل إبراهيم[(٢)] مكاناً لمدرسته، إنْ صَحَّ أن نسميها مدرسة، وفي نفس الوقت كان يسافر إلى الكويت ليقوم بالتدريس هناك،

(١) عالم مغربي درّس في الزبير والبصرة.

(٢) آل إبراهيم، وكذا آل الزهير، كانوا ممن تولّى مشيخة بلدة الزبير، تعود أصولهما إلى بلدة حريملاء شمال غرب الرياض.

ولكن بعض السعاة والحساد وقفوا في طريقه حينما رأوا تكاثر الناس حول حلقاته العلمية التي يعقدها في كل من بلدة الزبير وإمارة الكويت وقتئذ، وكان مقره في الجمعية الخيرية الإسلامية بالكويت، إذ اتخذها مدرسةً يعلّم فيها أصول الدين واللغة العربية وذلك عام تسعة وعشرين وثلثمائة وألف هجرية (١٣٢٩هـ - ١٩١١م) في عهد الشيخ مبارك آل صباح؛ تلبية لطلب أهل الكويت ليلقي المحاضرات في اللغة وعلوم الدين، ودعي الشيخ للجمعية الخيرية في الكويت فلبّى الدعوة قادماً من الزبير سنة (١٣٣١هـ - ١٩١٢م) ولبث مدة ينشر أفكاره السديدة وتعاليمه الرشيدة بالوعظ والتعليم، في الجمعية تارة، وفي المساجد أخرى، وما زال يدأب في هذا الإصلاح إلى أن طرأ ما اضطره إلى مغادرة الكويت[1].

وفي ربيع الآخر سنة (١٣٣١هـ - ١٩١٢م) أقيم في الجمعية الخيرية بالكويت حين افتتاحها، حفلٌ ألقيت فيه الخطب، فدعي المحدث الفاضل الشنقيطي من الزبير

(١) استند الكاتب في إيراد تلك المعلومات إلى كتاب تاريخ الكويت لعبدالعزيز الرشيد.

ليقوم بمهمة الوعظ والتعليم وغادرها بعد مدة لأمر سياسي، فأُقفلت الجمعية الخيرية بالكويت ووقف دولاب حركتها، وبقي هذا النهج حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة (١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م) فحاول الإنجليز اعتقاله في الكويت لموقفه المؤيّد للعثمانيِّين ودعوته ألاّ يحارب المسلمون بعضهم بعضاً لمصلحة أعداء العرب والإسلام من المستعمرين الأجانب.

ولما أراد القنصل الإنجليزي في الكويت إلقاء القبض عليه نأى بجانبه عن محيط الكويت وزمّ مطاياه إلى الزبير، ثم اتجه العالم الشنقيطي إلى حائل ومنها إلى القصيم واستمر هناك يعلّم حتى إذا وضعت الحرب أوزارها وحاول المستعمرون اعتقاله لإفتائه بوجوب الجهاد تحت راية موحدة وهي راية التوحيد بجانب السلطنة العثمانية ضد الإنجليز، ولكنه نجا منهم والتحق بالمجاهدين في البصرة واشترك في حرب سيحان قرب نهر يقال له «سيحان» على ضفاف شط العرب، كما اشترك المجاهد الشنقيطي في حرب المستعمرين الأوربيين، فساهم في

معركة الشعيبة وجرح في هذه المعركة، والشعيبة مكان قرب مرقد الزبير وطلحة رضي الله عنهما، وحضر حصار الكوت أو «كوت عبيد»[١] وتبع فلول الجيش العثماني إلى بغداد، ولما تمكّن الدخيل الأجنبي من البلاد خرج الشنقيطي إلى نجد ماراً بالكويت، وسار على خطته السلفية في الإصلاح والحث على الجهاد بالسيف والقلم فاستوطن مدينة عنيزة في القصيم وأسس مدرسة و قام بالتدريس في عنيزة وظل مجاهداً يحارب الجهل أربع سنوات[٢] ينشر الوعي ويعظ الناس ويرشدهم رغم ما واجهه من صعاب، فقد أغضب بعض أدعياء العلم وأوغروا صدر آخرين من مؤازريه، ولكن بقي من الرجال من يشدّ أزره ويقدر فضله ويحترم مكانته العلمية لما اتصف به من رجولة وأخلاق عالية، وكان حجةً في الحديث والتفسير واللغة العربية، مثالاً للاستقامة والتضحية، أنموذجاً في المثابرة والصلابة والتخلّق بخلق القرآن، ثم بعد ذلك

(١) سترد لاحقاً تواريخ تلك المعارك.

(٢) لم يُعرف أن الشنقيطي افتتح مدرسة في عنيزة، لكنّه درّس في المسجد، أما إقامته فيها فقد دامت نحو عامين .

عاد الشيخ الشنقيطي من عنيزة إلى الكويت وألقى عصا الترحال في الزبير وهناك تزوج فيها. استقرت الأحوال بعد الحرب العالمية الأولى، وعاد الشيخ الشنقيطي إلى بلدة الزبير في حوالي سنة (١٣٣٧هـ - ١٩١٨م) ليرسي أسس مدرسة سيكون لها شأن ونصيب في التاريخ، وكانت الأذهان مستعدة لتلقّي العلوم فأخذ ينشر فكرة تأسيس مدرسة تعنى بالنشء منذ حداثتهم فتزوِّدهم بالعلوم التي تتحلّى بها دنياهم فيتخرّج جيل صالح يساير الركب الحضاري معتزاً بدينه مفتخراً بقوميته، ولا شك أن أمثل طريق لتنفيذ هذه الفكرة هو فتح المدارس الصالحة، فاستجاب له جماعة من أهل البلد اقتنعوا بالمشروع ونفعه، فألف منهم لجنة انتخبته رئيساً لها وكان ذلك عام ١٣٣٩هـ (المرادف ١٩٢٠م).

ولقد كان التعليم في مدينة الزبير (الواقعة غربي البصرة الحالية التي نشأت على أنقاض مدينة البصرة القديمة والمطلة على الخليج العربي وعلى مشارف الصحراء) كما كان التعليم في غيرها من أكثر البلاد

في الزمن الماضي على الطريقة التقليدية؛ وهي طريقة الكتاتيب، ويندر فيهم من يتعلم الكتابة، وفتح العثمانيون مدرسة تسمى الرشدية لا تختلف كثيراً عن الكتاتيب.

أما (مدرسة الدويحس) المؤسَّسة في الزبير منذ سنة (١١٨٠هـ ـ ١٧٦٦م) وآثارها اليوم مقابل مسجد النجادا تماماً، فقد أسسها ابن دويحس الشماس، وكان التدريس فيها يتولّاه عادة قضاة البلد؛ إذ جرت العادة أن يكون القاضي في البلد إماماً وخطيباً في المسجد الجامع المقابل للمدرسة وهو (جامع النجادا) كما يقوم بوظيفة التدريس في مدرسة الدويحس علاوة على قيامه بمهمة القضاء في البلدة، ويعين الشيخ الذي يتولى إمرة البلد بأمر من الدولة العثمانية وقتئذ أو من واليها في البصرة، وليس للقاضي صفة رسمية بين مدرسي مدرسة الدويحس.

وبقيت هذه المدرسة منذ ذلك التاريخ حتى وضعت دائرة الأوقاف يدها عليها، وممن قام بالتدريس فيها الشيخ عبدالله الحمود والشيخ الجامع والشيخ عبدالمحسن البابطين، الذي كان عالماً وقاضياً وشاعراً ثم مدرساً

في مدرسة النجاة، وقد أورد ذكرهم الشيخ عبدالستار الدهلوي في مخطوطة «فيض الملك المتعالي» المحفوظة بمكتبة الحرم المكي مع العلماء الذين درسوا أو تعلموا في الحرم الشريف.

إن المستوى التعليمي في مدرسة الدويحس في الزبير المؤسَّسة منذ أكثر من مئتي سنة؛ يشبه المعاهد العالية في منهجها، ويمكن السكن في نفس المدرسة، ويعيشون على ما يقدمه أهل الخير إليها وما يسهم به العلماء والقضاة والمدرسون وما يجود به الناس في مناسباتهم لتقدم هذه المدرسة، وكانت وفود الطلاب من نجد والأحساء والحجاز تفد إليها لطلب العلم، وتتبرع بعض النسوة في أيام الجُمع بغسل ملابس الطلاب وتعطيرها بالبخور في بيوتهن ثم تعيدها لهم جاهزة قبيل صلاة الجمعة.

وإذا قامت مناسبة زواج أو دعوة، كان طلابُ مدرسة الدويحس المتقدمين في مائدة قد خصصت لهم بجانب من جوانب الحفل أو في غرفة خاصة، حتى إذا ما انتهوا من طعامهم تقدم المدعوون من الأهالي إلى المائدة،

وكل ذلك يتمّ إجلالاً لطلاب العلم وتكريماً للوافدين منهم من البلاد النجدية والحجازية والأحساء والكويت وغيرها من ديار مجاورة.

وقد تُوزّع على طلاب هذه المدرسة بعض النقود التي يتبرّع بها أهل الخير من زكاتهم؛ لأن المدارس التي تعنى بأمور الدين وتنشر تعاليمه وتهذب أخلاق الناشئة مثل مدرسة الدويحس سابقاً ومدرسة النجاة حالياً، جرت العادة أن تصرف الزكاة إليها، فهي تقوم بالجهاد في سبيل الله وفي نصرة دينه والدفاع عن الإسلام وحمايته من أعدائه بتكوين جيل يدافع ويحمي حوزة الدين بالعلم، وهذا ما قامت وتقوم عليه مدرسة النجاة تلك التي سعى الشيخ الشنقيطي في تأسيسها على النهج السلفي.

ويبدأ تاريخ تأسيسها على ما ذكره الشيخ عبدالله الدخيل وهو أحد المساهمين في التدريس بها حتى افتتاحها في بيت العلي، وكان نائب الشيخ محمد أمين الشنقيطي الشيخ عبدالرزاق الدايل، ومن الأساتذة الأوائل: الشيخ أحمد بن خميس من قضاة الكويت، والشيخ عبدالله المزيّن

والشيخ ناصر الأحمد والشيخ أحمد العرفج وغيرهم، وساهم الشيخ محمد العسّافي[١] في وضع نظامها وقام الشيخ عبدالحليم أفندي إمام مسجد النقيب بالتدريس فيها سنة (١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م).

وهنا بدأ النقاش حول تسمية هذا المعهد العلمي الذي سيحتل مكانة بين المعاهد العربية في العصر الحديث، فقال الشيخ الشنقيطي: نسميه (صدّاء) بدال مشددة، مستشهداً ببيت من الشعر لأبي الفتح البستي المتوفى سنة (٤٠٠هـ ـ ١٠١٠م) هو:

ما كل ماء كصدّاء لوارده

نعم، ولا كل نبت فهو سعدان

وسعدان: نبت فيه شوك كثير وصدّاء ماء رائق صافٍ جنوب بلدة مَرَات (في الوشم بجنب أشيقر) ويجب أن يكون ماؤها عذباً، ثم اقترح آخرون أن تسمى المدرسة

(١) من أهل عنيزة المقيمين في البصرة، توفي في بغداد عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) كان من طلبة العلم، أُهديت مكتبته إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وقامت بفهرستها عام صدور هذا الكتاب.

باسم (النجاة) وسمّيت كذلك، وهي الآن تمرّ بخمسة وستين عاماً هجرياً من تاريخ تأسيسها، فقد جُمعت لها الإعانات وتم بناء هذا البناء القائم اليوم في محلة الرشيدية.

شهد عام (١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م) عودة الشيخ الشنقيطي من الحج عن طريق البحر وبصحبته الشيخ محمد البريه إمام مسجد الخال قادمين من بومباي ومعهما عبدالوهاب الخليوي، وفي مستهلِّ هذه السنة في الخامس والعشرين من شهر المحرم بدأ الشيخ جهاده لفتح المدرسة، فتأسست جمعية لها تهدف لنشر الثقافة وإرساء قواعد الدين في النشء وتربيتهم تربية استقلالية يعتمدون فيها على أنفسهم في كسب معيشتهم وتحبّب إليهم الأعمال الحرة، وهي تتوسل إلى تحقيق هذا الهدف بفتح المدارس على اختلاف أنواعها ودرجاتها في جميع أنحاء البلاد منذ عام (١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م) وهي السنة الأولى من تأسيس (الجمعية).

ويعتبر الشيخ الشنقيطي المؤسس لهذه الجمعية بمؤازرة نخبة من أهل البر والإصلاح، وقد استطاع مع

هذه النخبة الممتازة فتح المدرسة التي جمعت بين العلوم الدينية وتقديس الشعائر الإسلامية من جهة وبين العلوم الدنيوية النافعة من جهة أخرى؛ لإعداد جيل يساير ركب الحضارة، ويحمل ثقافة نافعة تجمع بين الدين والدنيا وتقوده إلى ساحل النجاة، وذلك بتدريس عقيدة السلف الصالح والتحذير من البدع والخرافات ومقاومة الإلحاد والتحلل، وتعنى المدرسة باللغة العربية وحسن الخط العربي وتهتم بتعليم مبادئ مسك الدفاتر لتؤهّل طلابها للعمل الحر، وليس أدلَّ على نجاحها في ذلك من أن أكثر موظفي المحلات التجارية من تلاميذها، ونجاح خريجيها في دراساتهم العليا دليل آخر على نجاحها، حتى إنها اهتمت بتغذية الروح الرياضية، وساهمت في مباريات حصلت فيها على كؤوس فضية.

هذا بعض ما ورد في نظامها وشجع الأهلون هذه المدرسة، وتبرع الموسرون سنوياً في حفل يقام لهذا الغرض ويلقي الطلاب الخطب والقصائد والتمثيليات التاريخية، وتقيم وزارة المعارف منحة سنوية.

ويسجل التاريخ للشيخ أحمد المشاري الإبراهيم مساهمته بتشجيعه للشيخ الشنقيطي على تأسيس المدرسة على مراحل التعليم من أولى ابتدائي وعالي وأعلى، وظهرت في سنة ١٣٣٩هـ الفكرة إلى حيز الوجود، وبدأ تنفيذ تأسيس مدرسة، فقد استؤجر لها محل، ثم ضعفت ماليتها فسافر الشيخ الشنقيطي إلى بلاد الهند، فجمع من تجار العرب هناك أربعة عشر ألف ربية، فبنى فيها مقر المدرسة، بينما قدم الشيخ أحمد المشاري البراهيم جميع أخشاب قصره الذي كان قد اشتراه في حينه وكان لخالد العون.

ثم ساهمت مديرية الأوقاف بمنحة شهرية مقدارها سبعمئة وخمسون ربية، والمعارف بنحو ألف ومئتي ربية سنوياً، حتى النساء من أهل الخير ساهمن في هذا المشروع الجليل، فقد قدمت المحسنة السيدة منيرة العون أرضاً أقيم عليها بناء المدرسة الحالي واستقامت المدرسة (مدرسة النجاة) في الزبير، كما استقامت مدرسة الدويحس في الزبير ومدارس الفلاح بمكة وجدة والهند

ودبي، والمدرسة الصولتية بمكة التي أسستها صولت النساء، وغيرها من معاهد العلم التي خرّجت ولا زالت تخرّج الكثير من رجال اليوم والمستقبل.

وللحرم المكي الشريف نصيب وافر في تعليم مؤسسي هذه المدارس ومدرسيها، فهو المدرسة الأصيلة التي علمت مشايخها وعلى أيدي أولئك المشايخ تعلم رجال الأمس واليوم، وستبقى معاقل للعلم، يرحم الله العلماء العاملين في كل زمان ومكان.

لقد خلّف الشيخ محمد الأمين الشنقيطي تراثاً علمياً، قوامه التدريس في الدوحة المباركة التي غرسها، فأثرت في أبنائنا ولا زالت ثابتة تذكر تاريخ العالم العربي المعلم الشنقيطي وهو يجوب الديار من المحيط إلى الخليج.

حقاً إن في سيرة الشيخ الشنقيطي ذكرى للعلماء العاملين بعلمهم، وهي تذكرنا أن علينا واجباً لا بد أن نقدمه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وها هو الشيخ الشنقيطي خلّف من العلم النافع الذي نشره من المحيط إلى الخليج، فقد رست سفينة النجاة هناك على مشارف صحراء نجد

بأرض العراق، على بعد يسير من الكويت، وهي ترفع على ساريتها راية كتبت عليها: (النجاة) المعهد العلمي الذي لازال وسيظل له شأن كبير في التاريخ المعاصر.

وفي يوم الأربعاء غرة ربيع الأول ١٣٣٩هـ (المصادف الرابع عشر من شهر نوفمبر ـ تشرين الثاني عام ١٩٢٠م) كان أول يوم مبارك فَتحت فيه المدرسة أبوابها باسم (مدرسة النجاة الأهلية) في الزبير، وقام الشيخ محمد أمين الشنقيطي بتدريس اللغة العربية، وكان أول درس قام بتدريسه صباح يوم الأربعاء في موضوع ألفية ابن مالك في النحو[١].

وها نحن نحيي ذكرى مرور خمس وستين سنة على رفع ذلك العَلم على تلك السفينة العلمية الراسية في بلدة الزبير، وقد حل الشيخ الشنقيطي بين أهلها ليعيد تاريخ البصرة القديمة التي أسسها عتبة بن غزوان أيام الخليفة عمر بن الخطاب ﵁، وقد كان لها نصيب في

(١) خلط الكاتب هنا وفي الصفحات التالية بين تاريخي تأسيس جمعية النجاة وبين افتتاح مدرسة النجاة، وبينهما بضع سنوات.

تاريخ صدر الإسلام؛ إذ حوت من الصحابة الزبير بن العوام ابن عمة رسول اللّه ﷺ، وطلحة بن عبيد اللّه الذي صدّ سهماً بيده عن رسول اللّه ﷺ في وقعة أحد ومن العشرة المبشرين بالجنة، وأنس بن مالك خادم الرسول الأمين عليه الصلاة والتسليم، والمسجد الجامع للبصرة القديمة بمنارته التي تقص أحسن القصص عن حلقات العلم للإمام علي كرم اللّه وجهه، والحسن البصري وابن سيرين والتابعين أيام انتشروا في الأرض لنشر الإسلام والقضاء على الجهل والجاهلية، فمصّروا الأمصار وجنّدوا الأجناد ودوَّنوا الدواوين وعمروا الأرض، وأخرجوا أهل البلاد المفتوحة من نير الاستعباد إلى دين العدالة الاجتماعية والأخوة والحرية، دين العلم والهداية.

وخلف ذلك السلف الصالح خير خلف لخير سلف، ومنهم الإمام الشنقيطي الذي لعب دوراً مهماً في تأسيس صروح العلم ونشر الثقافة في كل ربع حل فيه، متخذاً من المسجد الحرام الذي بمكة المكرمة منطلقاً لسعيه المشكور وعمله المبرور وتجارته التي لن تبور، وهو

لذلك يرسم لنا صورة المسلم العامل بعلمه الذي يمكنه أن يقدم لإخوانه الخير العميم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم إذا كان عمله خالصاً لوجه الله، وحينما تسمو النفوس إلى روحانية فوق الماديات، وذاك لعَمري ما حث عليه الإسلام، ولنا من سير الصحابة والخلفاء والقادة الأوائل ومثلهم العلماء العاملون بعلمهم خير دليل وهم يعملون في دنياهم لخير أمتهم ويخرجون من هذه الدنيا فلم يخلّفوا سوى كتبهم المخطوطة أو عدة حربهم.

هاهو أبوبكر الصديق رضي الله عنه يصرف أربعين ألف درهم وهي كل تجارته في سبيل الدعوة - ويكتفي بأربعة دراهم في اليوم تعطى له من بيت المال، وذاك القائد الخالد خالد بن الوليد لم يخلّف سوى عدة حربه وفرسه وجعلها وقفاً للمجاهدين، ومثله صلاح الدين الأيوبي لم يخلّف درهمًا ولا دينارًا على ما ذكره قاضيه ابن شداد.

ومن العلماء ابن العباد، الذي خلّف مدرسة بمكة خرّجت فطاحل العلماء في الحديث والتفسير وعلوم القرآن وأيام العرب، وانتشروا في كل مكان وملأت كتبهم

خزانات الكتب، والواقدي رئيس قضاة بغداد أيام المأمون نقلت كتبه في مئة وعشرين وقراً وكانت ستمائة قمطر[١] لقد مات ولم يكن له أكفان فبعث المأمون بأكفانه، وإذا ذكر الطبري، فقد صرف ثروته ليعلّم تلامذته ويطعمهم ويكسوهم، وقد خلّف تفسيره الموثوق وتاريخه حجة في بابه.

أما الشنقيطي فقد نحا نحو هؤلاء، عندما سعى في تأسيس مدرسة النجاة بالزبير، وقد شهد اليوم العشرون من شهر ذي القعدة من سنة ١٣٤٠ هجرية (١٩٢١م) تشكيل هيئة إدارية للجمعية تقوم بتأسيس المدرسة يرأسها الشيخ محمد أمين الشنقيطي ويعاونه نخبة من أهل العلم ورجال الفكر والخير، ومنهم: الشيخ ناصر الأحمد والشيخ محمد العسّافي والشيخ أحمد الدايل والشيخ عبدالرزاق الدايل والحاج سليمان السويدان والشيخ محمد السند والشيخ محمد العوجان والحاج

(١) قِمَطْر في المعجم: على وزن هِزَبْرٌ، وعاء من قصب أو جلد، يتخذ لصيانة الكتب، ويرفع عن الأرض أو يعلق على الجدار مخافة الأرضة والقوارض، وهي كلمة تخص الكتب فقط.

إبراهيم البسام وداود البريكان وأحمد راشد الشايجي والحاج محمد سليمان العقيل والحاج عبدالمحسن المهيدب وأحمد التركي وعبدالرحمن الفريح.

وانتخبت هذه اللجنة من بينها هيئة إدارية تتألف من: الشيخ محمد أمين الشنقيطي رئيساً والحاج إبراهيم البسام نائباً للرئيس، والحاج محمد السليمان العقيل كاتبًا، والشيخ محمد العسافي أميناً للصندوق، وكل من الشيخ ناصر الأحمد وأحمد التركي وسليمان السويدان وعبدالمحسن المهيدب وداود البريكان أعضاء، ثم بتاريخ ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٠هـ (١٥/٧/١٩٢٢م) شكلت الهيئة الإدارية لجنتين:

الأولى: لتنقيح نظام الجمعية، وتتألف من السيد عبدالوهاب الطبطبائي والشيخ ناصر الأحمد والشيخ محمد العسافي والحاج سليمان السويدان.

واللجنة الثانية: لتنقيح نظام التعليم في المدرسة، وتتألف من الشيخ محمد أمين الشنقيطي والشيخ ناصر الأحمد والشيخ محمد السند والشيخ محمد العوجان.

وقد صادقت وزارة الداخلية على نظام الجمعية، وكذلك صادقت وزارة المعارف على نظام التعليم وذلك في سنة ١٩٢٢م، ثم عدّل نظام الجمعية بعد ذلك وصادقت عليه وزارة الداخلية سنة ١٩٤٩م، ثم صادقت عليه مجدداً سنة ١٩٥٤م بعد صدور مرسوم حل الجمعيات واعتبرت الجمعية من المنافع العامة.

ولما كان المال وسيلة من وسائل الحياة الهامة، وخير الناس من يوجهه فيما يصلح دينه وما ينفع به الآخرين ويخلّد اسمه مع الخالدين، فقد تبرع الشيخ أحمد المشاري الإبراهيم بخمسة آلاف ربية لاستئجار مكان للمدرسة وتأثيثه بما يقتضي من أثاث ولوازم مدرسية، وتعيين المعلم الأول الشيخ عبدالرزاق الدايل ليعين أو يساعد الشيخ الشنقيطي، فنقل الشيخ الدايل الأولاد الذين كان يعلمهم إلى المدرسة الجديدة وكانوا ثلاثين طالباً وذلك في اليوم الأول من شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٩هـ، وهو أول يوم افتتحت فيه المدرسة أبوابها باسم مدرسة النجاة الأهلية أو مدرسة الشنقيطي كما هو معروف بين الوسط

العامي من الناس، هذا الاسم قد خرج نتيجة القرعة من بين عدة أسماء هي: الفلاح والسعادة والنجاح وصدّاء.

وجلس الشنقيطي في صباح يوم الأربعاء ليلقي أول درس في تاريخ المدرسة وموضوعه الألفية في نحو اللغة العربية، على ما أورده ابن غملاس في مخطوطته التي حوت مذكراته، وأقبل الطلاب على المدرسة وتزاحموا وتزايد عدد المعلمين، ففي الأول من ربيع الأول سنة ١٣٣٩هـ (١٣/١١/١٩٢٠م) كان تعيين أول مدرّس فيها وهو الشيخ عبدالرزاق الدايل.

وفي الأول من جمادى الأولى سنة ١٣٣٩هـ كان الشيخ أحمد الخميس يعلّم فيها، وفي نفس التاريخ عيّن الشيخ علي السبيعي، وفي أول جمادى الآخرة سنة ١٣٣٩هـ تم تعيين الشيخ أحمد العرفج ويوسف الجامع، وفي أول شعبان سنة ١٣٣٩هـ عين الشيخ عبدالله المزيّن، وفي أول ذي القعدة ١٣٣٩هـ عيّن عبدالله الدخيل، وفي أول ربيع الثاني عام ١٣٤٠هـ عين الشيخ عبدالرحمن الهيتي وعبدالقادر الدايل وجاسم العقرب وتقي الدين

الهلالي، ومن هؤلاء من كان لهم طلاب يدرسون عليهم في المساجد الجامعة، مثل الشيخ عبدالرحمن الهيتي كان يدرس طلابه في مسجد النقيب، فلما عيّنوا في المدرسة انتقل معهم طلابهم إليها.

وتوسعت المدرسة وزاد عدد الطلاب، فتعاقدت مع مدرِّسين من الأقطار الشقيقة وضاقت بهم البناية المستأجرة فاشترت الهيئة المشرفة أرضًا شيّدت عليها المدرسة الحالية اليوم، وتوقف البناء حيناً من الزمن لقلة المال، فسافر الشيخ المؤسس إلى الهند (بومباي وكراچي) وأقطار الخليج العربي، وحصل على المال الذي أظهر المدرسة الجديدة إلى حيز الوجود، وكان تمامها في سنة ١٣٤١هـ (١٩٢١م).

وجدير بالذكر، أن الشيخ محمد أمين الشنقيطي قد تبرّع برواتبه لمدة ثمانية وعشرين شهراً منذ تأسيس المدرسة إلى حين عودته من الهند تبرع بها إلى المدرسة، تنازل عن ذلك المبلغ مؤسس المدرسة وأسقطه وكتب بخطه تحت القرار أنه لا يوافق على تَسَلُّمِ المبلغ وأن

السعي في هذا المشروع العلمي الإنساني واجب وكان مرتبه في كل شهر مائة وخمسين ربية.

وافتتحت المدرسة السنة الدراسية سنة ١٣٤١هـ (١٩٢١م) بثلاثمئة طالب وبعشرة معلمين، ورغم كثرة طلبات الالتحاق فقد رفضت؛ لقلة إمكانيات المدرسة مالياً، ويساهم الطلبة بتقديم خمس ربيات إلى ربية واحدة لكل طالب سنوياً ويعفى منها الفقراء وتخفض للإخوة ويسدد العجز من تبرعات الأهالي.

وعلى إثر مطالبة الهيئة الإدارية بالمال ساعدت الأوقاف بوزيرها عبداللطيف المنديل بإعانة، بعد أن درس أحوال المدرسة سماحة الحاج حمدي الأعظمي على رأس لجنة أرسلتها الأوقاف لهذا الغرض، وقررت أن المدرسة قائمة بعمل جليل ولا بد أن تصرف عليها من أوقاف المسلمين لنشر التعليم وغرس الدين بين أبنائهم وتنمية روح الفضيلة بين أحفادهم، وكانت إعانة الأوقاف سبعة آلاف وأربعمئة وسبعين ربية في السنة عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م)، كما ساعدت المعارف بألف وخمسمئة ربية.

وازدهرت الحياة في المدرسة الناشئة، وأسقطت الأجور عن جميع الطلاب وتعاقدت مع المعلمين الأكفاء، وتوسعت في قبول الطلاب الجدد فزاد عددهم ومضت بجد وحماسة إلى غايتها، وقدمت لها المساعدات من أهل الخير من طبقات المجتمع كافة، حتى المدرسون؛ منهم: الشيخ جاسم العقرب والشيخ خليفة شعبان وغيرهم، بعد أن واجهت صعوبات مالية؛ إذ انقطعت عنها بعض تلك الإعانات بعد عدة سنوات، ثم بقطع كل الإعانات في سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م). واحتارت الهيئة الإدارية: هل تعيد الأجور على الطلاب فتضاعفها عما كان من قبل أم توصد أبواب التعليم أمام الطلاب المتزايدين فتتركهم مشردين في الطريق تائهين في مهامه الجهل؟ ولكن فرج الله قريب وما أقربه من المخلصين وما أسرعه ممن يعرف ويقدِّر قيمة العلم والتعلم، وإذا بالجماعة من أهل الخير في البلد يتنادون لاجتماع في بيت الحاج سليمان وحمد الذكير؛ ليرتبوا على أنفسهم تبرعات سنوية يدفعونها من غرة شهر المحرم سنة ١٣٤٦هـ الموافق لشهر تموز (يوليو) ١٩٢٧م، وممن تبرع في ذلك الاجتماع التاريخي (بالربيّات):

(٨٠٠ ربية) سليمان وحمد الذكير.

(٢٠٠ ربية) سعد الربيعة.

(٥٠٠ ربية) عبدالمحسن الطبطبائي.

(١٥٠ ربية) صالح العبدالله البسام.

(٤٠٠ ربية) فهد المحمد الراشد.

(١٠٠٠ ربية) مصطفى الإبراهيم.

(٤٠٠ ربية) سعود الصالح.

(٥٠ ربية) عبدالمحسن المهيدب.

(٢٠٠ ربية) محمد السليمان العقيل.

(٥٠ ربية) أحمد السويلم.

(٢٠٠ ربية) أحمد العنيزي.

(٥٠ ربية) علي العبدالكريم المهيدب.

(٢٠٠ ربية) أحمد الثاقب.

(٥٠ ربية) محمد الحمد الفارس.

(٢٠٠ ربية) عبدالعزيز الفليج.

(٥٠ ربية) عبدالعزيز السالم البدر.

(٢٠٠ ربية) محمد الناصر الصالح وإخوانه.

(٣٠ ربية) منصور أبا الخيل.

حتى معلمو المدرسة تبرعوا ببعض رواتبهم، بعد أن جمعهم الشيخ الشنقيطي بداره وشرح حال المدرسة وطلب منهم التبرع والمساهمة بتقويم المدرسة، فاستجاب المعلمون - وهم من أهل الفضل والصلاح - يقدّمون المصلحة العامة على مصلحتهم، فتنازل البعض عن نصف راتبهم، وآخرون عن الربع، أما الشيخ الشنقيطي فتنازل عن ثلثي راتبه وكان مئة وخمسين، فأخذ يتقاضى خمسين ربية فقط، وسارت المدرسة منذ ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) متعثرة محتفظة بعدد طلابها ومدرسيها، ويجدر أن أدوّن للتاريخ أسماء المدرسين الذين تنازلوا عن قسم من رواتبهم ابتداءً من شهر صفر ١٣٤٦هـ شهر آب (أغسطس ١٩٢٧م) وهم أصحاب الفضيلة:

الشيخ محمد أمين الشنقيطي مدير المدرسة والشيخ عبدالله السند والشيخ عبدالله العودة، والشيخ ناصر الأحمد، والشيخ سليمان العبدالكريم، والشيخ قاسم العقرب، والشيخ عبدالمحسن الربيعة، والشيخ عبدالرزاق الدايل، والشيخ عبدالكريم الصانع، والشيخ مشعان

المنصور، والشيخ عيسى الشرهان، والشيخ عبدالمحسن المحمد الشقير، والسيد عبدالكريم المقيم.

وتوفي بعض هؤلاء المتبرعين وأولئك التجار الأخيار الذين قدموا تبرعات سنوية فاختلَّ توازن المدرسة المالي وتفاقمت الأزمة المالية العالمية رغم نشاط الهيئة المؤسسة الإدارية لتدبير المال، فقد أفتى بعض علماء البلد بجواز صرف الزكاة إلى المدرسة وألحقوها بصيغة مصرف (في سبيل الله)، هذه الفتوى وقّعها المشايخ: محمد العساف وعبدالوهاب الفضيلي ومحمد السند وإبراهيم المبيّض وعبدالله الرابح، وفتوى أخرى موقّعة من المشايخ: عبدالله الحمود، وعبدالمحسن أبابطين، ومحمد الشهوان.

واعتمدت على حفل سنوي يقام في المدرسة يحضره أولياء الطلاب وغيرهم، تُلقى فيه الخطبُ والقصائد والتمثيليات التاريخية، ثم يعمل اكتتاب لجمع المال، وقد حصل لها من سعاة الخير الكثير، ومنهم تحسين علي متصرف لواء البصرة الذي يذكره التاريخ حين تبنّى المشروع في كل عام منذ سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) واستمرت منحة وزارة

المعارف مطّردة الزيادة إلى سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م)، حيث بلغت ألف دينار، وكان يحث الناس على التبرّع للمدرسة ويرأس احتفالاتها السنوية لمناصرتهم وتأييدها، فحصل لها من مسعاه خير كثير.

وحريّ بالذكر، ألا يظن البعض أن طريق التأسيس ممهد أمام المؤسسين ومنهم الشيخ الشنقيطي وصحبه، أو أن طريق التعليم مفروش بالورد والريحان، فقد قام ضد هذا المشروع العلمي الإنساني فريقان من الناس ممن دأبهم مقاومة الإصلاح بحجة أن تدريس الجغرافية وكروية الأرض ومنشأ المطر ونحو ذلك يرونه خروجًا على الملّة.

وفريق آخر أراد الوقوف أمام هذه المدرسة التي تأخذ بما أخذ عليه السلف الصالح، وهؤلاء اعتدوا على الشيخ الشنقيطي ولكنه صبر وصمد أمامهم، فقد غرروا ببعض السفهاء بضرب الشنقيطي في الطريق لأنه يدرس في مدرسته أن نزول المطر من البخار وأنه يحاول فتح مدرسة للبنات، علاوة على الوشايات والدسائس، فلولا

صبر مؤسسها وصموده وقوة شخصيته لما استطاعت المدرسة البقاء.

وتوفي الشيخ محمد الأمين الشنقيطي سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) في الزبير بمرض التدرن بالعظام، ولكن اسمه خالد مع الخالدين الذين ساهموا في بناء صرح للثقافة حتى اليوم والغد، وسيبقى يحمل اسم الشنقيطي بمدرسته الموسومة بالنجاة الأهلية، كما تحمل مدرسة الفلاح والصولتية بمكة المكرمة والهداية في البحرين وغيرها أسماء مؤسسيها ومعلميها الأوائل، وهم الجنود المجهولون في سبيل رفعة وتقدم المجتمع.

اجتمعت الهيئة العامة للجمعية في ١٥رجب ١٣٥١هـ (المصادف ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩٣٢م) وانتخبت خلفاً له الشيخ ناصر إبراهيم الأحمد في ١٥ رجب سنة ١٣٥١هـ، وهو من الهيئة التأسيسية كما مر بنا ومن المخلصين للفكرة ومن علماء البلد، فكان خير خلف لخير سلف.

ولد الشيخ ناصر، رحمه الله، سنة ١٨٩٥م وتلقى علومه على يد أساتذة متخصصين؛ منهم الشيخ محمد العوجان

والشيخ عبدالله الحمود، وعلى يد الشيخ محمد الشنقيطي وغيرهم. ويمتاز بعقلية راجحة وإدراك ووعي وإخلاص، واستمر يدير المدرسة حتى توفاه الله سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) .

وبعد وفاة الشيخ ناصر الأحمد انتخبت الهيئة العامة لرئاسة المدرسة الحاج عبدالله السليمان الذكير، وعُيّن مديرًا لها الأستاذ محمد الطنطاوي (المصري) وكان الحاج عبدالله الذكير رئيس جمعية النجاة ومن تلامذة المدرسة، وكذلك كان جميع هيئة الإدارة الحالية من تلاميذ المدرسة على حد قول أستاذنا الشيخ عبدالمحسن الشقير، وبعد جهود السيد تحسين علي متصرف لواء البصرة ومنحة وزارة المعارف والاحتفالات السنوية التي تجرى بها التبرعات برئاسة تحسين علي انتعشت المدرسة وقبلت زيادة في عدد الطلاب فبلغ عددهم نحو ستمائة طالب وسبعة عشر معلمًا وثلاثة فراشين، فلم تتسع لهم بناية المدرسة فاستأجرت الهيئة داراً جعلتها شعبة للمدرسة ونقلت إليها بعض شعب الصفوف سنة

١٩٤٧م إلى سنة ١٩٥١م، حيث تبرع الحاج محمد العقيل ومحمد الشايع بمال لشراء أرض مجاورة بمساحة ثلاثة آلاف متر مربع توسعة للمدرسة، وبنى خالد العبد اللطيف الحمد ثماني غرف وطارمة [١] وما يقتضى من مرافق على نفقته، وكان ذلك في عام ١٩٥١م حيث انتقلت إليها شعبة المدرسة من بناياتها المستأجرة في نفس العام.

ثم فتحت مدرسة متوسطة وروضة للأطفال ومدرسة للبنات وفق منهج مدارس جمعية النجاة، ورغبة في إتمام مراحل الدراسة سنة ١٩٥٧م، ويحتل طلاب المدرسة الدرجة الأولى في امتحانات الشهادة في كثير من السنين بين المدارس في البلد، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد كنت خريج الدراسة العامة فيها سنة ١٩٤٠م وكان ترتيبي الأول على جميع مدارس البلد، وهي اليوم تسير على منهج المعارف مع زيادة الاعتناء بدروس الدين واللغة العربية ومسك الدفاتر التجارية، ويحمل بعض مدرسيها شهادات جامعية وخبرة في التدريس، ومن

(١) الطارمة في اللهجة العراقية: الغرفة الخشبية، وأصل الكلمة فارسي.

ضمنهم الزميل الأستاذ عبدالله العقيل وهو أحد طلابها الذي كان مدرساً ثم مديراً للمدرسة لسنوات عديدة بدون مرتب حيث تبرع به للمدرسة.

وتلبية لرغبة الأهالي في البلد، فتحت الجمعية سنة ١٩٥٧م روضة لسد نقص عدم وجود روضة أطفال في الزبير، ولما فتحت الحكومة روضة أطفال في الزبير رأت الجمعية أن تبدل روضة الأطفال بمدرسة للبنات وذلك سنة ١٩٦٤م، ففتحت مدرسة ابتدائية للبنات عام ١٩٦٥م وتعاقدت الجمعية مع معلمات قديرات ذوات علم وشهادات.

وكانت المدرسة تعنى بالنشاط الرياضي وتنال مدارس الجمعية المرتبة الأولى بين مدارس الزبير في ألعاب الساحة والميدان والكرة على اختلاف أنواعها، كما تنال المراتب المتقدمة بين مدارس لواء البصرة، ولديها كؤوس التفوق شاهدة على ذلك.

وفي الامتحانات العامة (البكالوريا) التي يشترك طلاب مدارس النجاة فيها، سواء لإنهاء الدراسة الابتدائية أو

المتوسطة، فإن مدارسها في المقدمة وفي بعض السنوات تكون نتيجتها ١٠٠٪، ولديها كتاب شكر من مديرية التربية للواء البصرة على نتائج امتحاناتها العامة، وللمدرسة عناية خاصة بانتقاء المعلمين، فعلاوة على المؤهلات الثقافية يشترط في المعلم أن يكون من المتمسّكين بشعائر الدين والمحافظين على أدائها حتى مع طلابها، إذ تقام في المدرسة صلاتان في اليوم هما صلاة الظهر أحياناً وصلاة العصر في مسجد مجاور للمدرسة، وينفذ باب من المدرسة إلى المسجد فلا ينصرف الطلاب عصراً إلا بعد الصلاة، قسم منهم وهم الأطفال في ساحة المدرسة أو ردهاتها وقسم آخر في المسجد المجاور.

وقد خرّجت المدرسة منذ تأسيسها حتى الآن نحو ألفين وخمسمئة طالب واتخذ الخريجون طرق الكسب بأمانة واستقامة وإخلاص، وهذا دليل على أثر التعليم الابتدائي الذي يجمع معه الحفاظ على شعائر الدين.

وفيها اليوم نحو سبعمئة طالب في مراحل التعليم: الابتدائي والمتوسط والتجاري، وللمدرسة مشاريع تنتظر

إنجازها إذا سنحت لها ظروفها، ومنها بناء مدارس في المراحل الثلاث ومدرسة دينية تخرّج أئمة المساجد ووعاظاً ومرشدين ومسك الدفاتر.

إن للشيخ العلامة الشنقيطي تراثاً علمياً ومكتبة عامرة بالكتب والرسائل دون المخطوطات التي خَطَّها بيده، وعليها تمليكات لكثير من العلماء منذ القرن السادس الهجري، ومن هذه ديوان الحطيئة من أوله إلى ما قبل الأخير وهو من المخطوطات النادرة؛ إذ أُرسل إلى لندن وبيع هناك بأربعة دنانير، وقال الدكتور الهلالي إن ثمن المخطوطات كانت من جملة نفقة عياله وبيعت بعض كتبه بمئة وثلاثين ديناراً.

واختص الشيخ الشنقيطي باللغة العربية وآدابها وفي الحديث ورجاله والتفسير والتاريخ، وغلب عليه الاجتهاد فلا يميل إلى التقليد ولا التقيد بمذهب، وحكى لي الدكتور الهلالي أن الشنقيطي كان مرة في الكويت وقد ذاع صيته فقاومه حُسَّاده وقالوا لا نريده يفتي لأنه لا يلتزم بمذهب واحد، وفي اجتماع ضم بعض الوجهاء

ومنهم السيد حافظ وهبة[١] طلبوا منه ضرورة الالتزام بمذهب واحد، ولكنه طلب فقهاء البلد ليناظرهم، وبعد جدل علمي انتهى إلى أن تغلّب عليهم فأفحمهم.

يرحم اللّه الشنقيطي، فقد توفي لكن ذكراه باقية، وستبقى أمانة عند كل من عرفه مجاهداً بسيفه في سبيل اللّه ومحارباً أعداء الدين، مناضلاً للأجنبي الدخيل على بلاد المسلمين، فكل بلاد المسلمين بلاده، يحارب الجهل والجاهلية ويسعى في سبيل غرس الأخلاق الفاضلة، وكان له ما أراد، فقد غرس خير غرس وأنبت أفضل نبات وأثمر أيما ثمار، فهاك طلابه وهم ينتشرون في البلاد وكلهم رجال، الرجل منهم يعدل رجالاً يوثق بهم وعباد اللّه يسعون في الأرض، يعتمدون على اللّه ثم على علمهم وعملهم، فمنهم الشيخ الذي يحسب نفسه كشيخه الشنقيطي بالأمس عليه واجب نشر العلم ومحاربة الجهل، وذاك شاب جند طاقاته في سبيل النفع العام فجاءه المنصب

(١) شخصية تعليمية من مصر جايل الشنقيطي، درّس في المدرسة المباركية في الكويت، ثم ارتحل إلى الرياض وصار مستشاراً سياسيّاً، سيرد لاحقاً.

وكان أكبر من منصبه يعمل بجد ونشاط وإخلاص وتفان، فأقبلت الدنيا إليه وهو معرض عنها وفاز بالحسنيين خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وهناك جيل ناشئ لا يزال ينافح ويكافح في سبيل مستقبل زاهر.

كل هذا وذاك من ثمرة الشجرة المباركة التي غرسها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي بيده، وباركها أهل العلم والبر والفضل فسقوها ورعوها حق رعايتها، فاخضرّ عودها وتشابكت أغصانها فأثمرت ثمراً طيباً، وما إن حل ذلك الثمر في بلد حتى سعى إليه الكبير والصغير لينتفع منه.

حقا لا يخلّد الإنسان نفسه في هذه الدنيا وكلُّ مَنْ عليها فان، ولكن ذكرى الإنسان تخلّده وإن كان مدفوناً لسنين أو قرون بعلم ينتفع به، وقد خلّد الشنقيطي ذكراه بعلم لا يزال ينفع الآخرين.

ما أحرى الخَلَف أن يقتدي بالسلف، فيخلّدوا ذكراهم في التاريخ بتقويم المدارس ومدّ العون لها، تلك المدارس التي تغرس العقيدة في نفوس الناشئة وتقوّم أخلاقهم وتزيدهم بسطة في العلم الذي يساير التطور الحضاري

الحديث، في وقت تعصف في هذا الجيل العواصف بين مشرق ومغرب، والله يهدي من يشاء إلى سبيل الرشاد.

ولدى معلم الجمعية في السنة الدراسية (٦٦ـ١٩٦٧م) الأخيرة و (٤) محاضرين بعض المدرسين يحملون شهادات جامعية والبقية لهم مؤهلات بعد الدراسة الثانوية أو دراسة خاصة وخبرة في التدريس، مع التخصص بالمواضيع التي يتقنونها، ومن ضمنهم ثلاث معلمات قديرات لمدرسة البنات، هذا عدا الكتبة والفراشين.

وللجمعية عناية خاصة في انتقاء المعلمين، فعلاوة على المؤهلات الثقافية تشترط في المعلّم أن يكون من المتمسكين بشعائر الدين المحافظين على أدائها ولا تتساهل في هذا مطلقاً، لأن القدوة الحسنة خير من الوعظ والإرشاد.

ويبلغ عدد الطلاب الذين تخرّجوا من مدارسها منذ تأسيسها حتى الآن ما يقارب (٢٥٠٠) طالب، فيهم من اجتاز صفها الأخير وفيهم من تركها قبله بعد أن استفاد بما يؤهله لخوض معترك الحياة.

فمن اكتفى بما قدمته له المدرسة وطرق باب التكسّب، فميزته الأمانة والاستقامة، ولذلك فأكثر كتّاب المحلات التجارية في البصرة هم من تلاميذها، وفيهم من أسعفتهم ظروفهم المالية وفتحوا محلات تجارية ناجحة، ومن واصل دراسته العالية منهم فميزته الخاصة المحافظة على شعائر الدين والجد في العمل سواء في مراحل دراستهم أو في وظائفهم، حكاماً ومحامين وأطباء وكتاب بنوك، ورئيس الجمعية وكل هيئتها الإدارية الآن هم من تلاميذها.

وفيما يلي بيان بمدارس الجمعية في الوقت الحاضر وعدد طلابها:

١ـ المدرسة الابتدائية للبنين: ٥١٢.

٢ـ المدرسة الابتدائية للبنات: وهي حديثة العهد: ٢٦.

٣ـ المدرسة المتوسطة: ١٢٣.

وليس للجمعية مورد ثابت تعتمد عليه في تسديد نفقاتها، فإن موردها ثقتها بالله تعالى أولاً وبأهل البر والإحسان ثانياً، فهي تسد نفقاتها مما تحصل عليه

من أجور بسيطة اسمية على الطلاب تبلغ ديناراً واحداً في السنوات الابتدائية وخمسة دنانير بالمتوسطة، يعفى من الأجور الفقراء، وتخفض للإخوة، فبلغ نسبة الإعفاء ٣٠٪ تقريباً، وكذلك من إيجارات ما تملكه من عقارات ومن منحة وزارة التربية وقدرها (ألف دينار) قطعت هذه السنة (١٩٦٧م) بسبب خطة التقشف، هذه الموارد لا تسدُّ أكثر من ربع مصروفاتها، أما بقية الموارد فمن التبرعات السنوية من أعضاء الجمعية ومن منح أهل الفضل والإحسان في الكويت وغيرها، فبلغت مصروفاتها السنوية هذه السنة (١٩٦٧ـ ١٩٦٨م) الدراسية (١٠٠٠٠) دينار من الموارد المذكورة أعلاه.

أما بالنسبة لمشاريع الجمعية، فهي كالآتي:

١ـ بناء مدرستين ابتدائيتين ومدرسة ثانوية.

٢ـ تكميل مراحل الدراسة بعد المتوسطة أي فتح ثانوية.

٣ـ فتح ثانوية دينية لتخريج أئمة للمساجد ووعّاظ.

وهكذا رست سفينة النجاة إلى شاطئ السلام يقودها ربابنة نذروا أنفسهم لخدمة العلم لوجه الله، ومنهم مؤسسها الشيخ محمد أمين الشنقيطي، هذا والله الموفق لكل خير.

مذكّرات الشيخ
محمد الأمين الشنقيطي

تليها تتمّتها بقلم
الشيخ ناصر إبراهيم الأحمد

في كتابه عن سيرة الشنقيطي، قدّم عبداللطيف الدليشي لهذه المذكّرات بالأسطر الآتية:

«إليك ترجمة حياة المؤسس الشنقيطي بقلم أحمد حمد آل صالح، نقلاً عن نسخة بخط الشيخ الشنقيطي نفسه، وبقلم عبدالله العبدالرحمن البسام وسليمان الصالح البسام وعبدالله المحمد المنصور، كتبوها في مدينة عنيزة من نسخة الشيخ نفسه، وذلك عام ١٣٣٦هـ عندما كان الشيخ موجوداً هناك. هذا ما أفادني به الأخ عبدالله العبدالرحمن البسام في البصرة بعد قدومه

من عنيزة، وذلك في صباح يوم السبت ١٨ ربيع الثاني ١٣٧٥هـ (٣ كانون الأول ١٩٥٥م).

أما النسخة التي بخط الشيخ فلم نعثر عليها، إلا أن ولده يوسف عندما سألته عن ترجمة والده أخذ يفتّش، ثم جلب لي وريقة ممزقة هي أول الترجمة، فكتبتُ للأخ عبداللّه العبدالرحمن البسام وكان في عنيزة مستدلاً بذلك من أول الترجمة حيث ورد اسمه، فكتب لي بأنه سوف يجلبها معه عند قدومه للبصرة، وقد فعل جزاه اللّه خيراً، وها أنا ذا أنقلها عن نسخته، وقد لاحظت أن للترجمة بقية وذلك بدليل آخرها حيث وقف الناسخ عنده، واستفسرت من الأخ عبداللّه البسام عن هذا النقص وأطلعته على آخر الترجمة، فأيّدني ولكنه قال: إن هذا هو الموجود عنده.

وها أنا ذا أُدوّنها مع تكملتها هنا بأمانة كما وردت، تاركاً الإسهاب والتفاصيل والاستطرادات الواردة فيها، شارحاً وموضّحاً في الهامش ما وجب شرحه وتوضيحه فيها».. انتهى كلام الدليشي.

وبعد مراجعة النص الكامل للمذكرات والنظر في الأجزاء التي اقتطفها الدليشي منها في كتابه، وبعد المقارنة واستكمال الناقص واستبعاد المتكرر وتخريج القصائد وتحقيق الاختلافات النصّية؛ أتت المذكرات في مجملها تزخر بالمطارحة الأدبية، والرواية الشعرية، والمنافحة اللغوية، والقصة والطُّرفة، وذلك في أثناء تجواله من شنقيط والمغرب إلى مصر فالحجاز والأحساء وعُمان والبحرين والكويت وحائل والقصيم وانتهاءً بالعراق، لتتوقف عند العام ١٣٣٦هـ (١٩١٥م)، مع التذكير مرة أخرى باختلاف روايات بعض الأسماء والأشعار، وأن الكلمات المحذوفة باجتهاد مني قد أُبدلت بنقاط.

نـص المذكّـرات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد سألني الولد العزيز عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالعزيز البسام أن أكتب له ترجمةً لنفسي وتعريفاً بحالي، فتوقّفت في بدء الأمر، لكوني لا أرى نفسي أهلاً لأن أُذكر على صفحات التاريخ، ثم أمعنت النظر في المسألة فظهر لي أنها غير ضارة بل نافعة لي وله ولغيرنا، فإني كلما جال نظري في التاريخ أرى المتقدمين لا يحتقرون أحداً عن أن يترجموه ولا يهملون شيئاَ مما وصل إليهم من الأخبار، وإن كان في بادئ الرأي لا فائدة فيه، فتجدهم يترجمون الأعراب الجفاة والحمقى واللصوص والأغبياء والمجانين والطفيليين والمغنّين وغير ذلك من أصناف الناس، وبذلك حفظ ما حفظ من التاريخ والأنساب، وإنما ضاعت الأنساب واختلطت في القرون الأخيرة لإهمال الناس ذلك، فصار الأصيل يعجز عن إثبات أصالته والدخيل تمكنه دعوى الأصالة، وليس بأيدي

الناس شيء قاطع للنزاع يرجع إليه، وأحق الناس بحفظ نسبه وتقييد تاريخه المتنقل من قطر إلى قطر ولاسيما الأقطار المتباعدة كجزيرة العرب والمغرب مثلاً، فإن المتنقل من أحدهما إلى الآخر، إذا لم يكتب عن نفسه كتابة تبقى بعده، لا يمكن بنوه بعده ولا غيرهم أن يعرفوا شيئاً من أحوال أسلافه، ولو أراد بنوه مواصلة أهلهم بمكاتبة أو غيرها أو أراد أهله مواصلة بنيه لما أمكنهم ذلك.

لهذا رأيت أن أكتب عن نفسي تعريفاً فيه كفاية في الوقت الراهن لمن أحب الاطلاع على ذلك، ولذريتي إن رزقني الله ذرية، وإن كان دون الذي في خاطري بكثير، ولعلي إن أمهلني الله تعالى مدة أعيده بأبسط من هذا، وإنما كان دون الذي في الخاطر لأني خرجت من وطني وأنا حديث السن، ولم تكن المسألة لي على بال حتى أستعد لها وأقيّد ما أخاف نسيانه، وليس معي الآن أحد أرجع إليه فيما اشتبه عليَّ، ولا كتاب أقتبس منه، والحفظ خوّان، والعهد بعيد، فإن وُجد في هذه العجالة شيء على خلاف ما هو عليه ولا سيما في تواريخ القضايا بعدما فارقت أهلي:

حتى انزوى ليل الشباب إذ انبرى
صبغ المشيب يسور في أعقابه

مَنْ راحمٌ لأخي مشيب عاتب
قد عِيضَ من إعتابه بعتابه

ومن اللقاء من الحبيب بقاءه
ومن الجنوح له إلى إضرابه

ومن التزام كلامه بملامه
ومن التئام عذابه بغدابه

لا تطلبنَّ الشيء بعد ذهابه
ما قد مضى لم ..... نيل إيابه

ماذا يَضِيرُكَ إن نسبت بيا خل
مخلاف وعد حبيبه مخلا به

ولتسع في أعتابك الحي الذي
عتبي الإله الحي في أعتابه

إذ سخطه ما يسخط المولى ولا
يرضى إذا الأيما يرضى به

أبناء عبدالله من بلوا بما
من سؤدد أعيا على طلابه

وبنو مجيء الخير من أبوابه
وبنو الكريم أبي الكريم النابه

قوم إذا عض الزمان بنابه
فلوا ببذلهم شبا أنيابه

وهي طويلة، يقول في آخرها:

وعلمتـــمُ حيّيتـموا وعلمتمُ
أنّ الهجا ما كنتُ من أربابهِ
فأصحتمُ لمقالة من كاشح
متقوِّل لحديثه كذّابه
والله يشهد أن ذلك باطل
والله أكبرُ شاهدٍ، وكفى به

وقوله: «أبناء عبدالله من بلو» إلخ البيت، هم آل البلا، وفيه إشارة إلى أن بلا مأخوذة من فعل أمر الإثنين، من بلّا بالشيء إذا ظفر به، ولعل عبدالله هذا خاطب بذلك شخصين أو خوطب هو وغيره بذلك، فعلقه هذا اللقب، وكان أحمد بن مصطفى بن بدر الدين الأبوي ظلمه مع آل يعقوب، فقال:

أبناء يعقوب أهل الفضل من قدم
وكلُّهمْ في المعالي ثابتُ القدمِ
وهَجْو هاجيهم لغوٌ كما شهدت
لهم بذاك عدول المجد والكرم
خلت كل امرئ أمسى يذمُّهم
كواضع الرقم في أمواج ملتطم

ولم يفد نفسه فيما يذمّ به

من ليس أهلاً لذمٍّ غيرنتن فم

فليس ذلك عن عمد بل عن نسيان؛ لأنني لم أقيّد شيئاً منها قط قبل كتابتي إياها الآن، ومثل ذلك مظنّة لأن ينسى، والله أسأل أن يعصمني من أن أبطل حقاً أو أن أُحق باطلاً، فأقول:

أنا الفقير إلى الله تعالى، أبو عائشة محمد فال الخير، وهو لقب بني أمين، ويقال: الأمين السالم بن عبدى بن فال الخير بن حبيب الله بن أبي بفتح الهمزة بن حبيب ابن أحمد بن أعمر كداش الحسني، وأمي عائشة بنت عبيدالله بن إبّن ـ بكسر الهمزة وتشديد الموحدة المفتوحة آخره نون بوزَن قنّب ـ بن أحمد الخليل بن حبيب الله بن أبي، إلى آخر النَسب المتقدم.

هذا القدر من نسبي محقق عندي، ليس فيه نقص ولا زيادة .

كان أبي وجدي من أعيان قبيلتنا، ولكنهما لم يتسما بصفة العلم كأسلافهما، وكان والدي تشبث بطلب

العلم، ولكنه لم يحصّل كثيراً، وكان شديد البرّ بوالدته، وصولاً للأرحام، مُحسناً إلى أقاربه، وكان مولعاً بالأذكار الواردة، كثير المطالعة لكتاب «الحصن الحصين» للجزري، يحفظ جلّ ما فيه من الأذكار أو كله، مواظباً على قراءة تلك الأذكار مساءً وصباحاً وعند النوم والدخول والخروج وغير ذلك، وكان يلقننا إياها ويحثُّنا على استعمالها، وكان والدي وعمي وجدي - بل وأكثر آل حبيب اللّه بن أبي - مشهورين بمعرفة الأثر وقصّه، لا يكاد يسرق شيء في محل هم فيه إلا وأظهروه، وقد جرت لوالدي وجدي في ذلك حكايات غريبة، وجدي عبدي مسمّى على عم له اسمه عبدي بن حبيب اللّه، كان علامة سيداً رئيساً شاعراً وشعره وسطي، ومن أبياته السائرة في الأمثال قوله من أبيات يخاطب بها صديقاً له:

أقمت بدار قد أذلَّك أهلها

ونفس الفتى لا ينبغي أن يذلها

وقوله:

فإن بني أبّي الأعزين أنفنا

وأنف الفتى منه وإن كان أجدعا

وبنو أبي، بطن منا حِلفاً وليس من نفس القبيلة، وكان حصل بينهم وبين بعض القبيلة كلام أغضبهم وأرادوا الارتحال عنَّا، فقام عبدي وغيره في مسألتهم واسترضوهم ووبخوا الذين أغضبوهم فرضوا وقاموا على حالهم، وقال عبدي في ذلك شعراً منه هذا البيت، وسأذكر له فيما بعد بيتين.

وكان جدي فال الخير وأبوه حبيب الله من أهل العلم، إلا أن عبدى أخمل ذكرهما، وكانت والدتي تحفظ القرآن عن ظهر قلب، ولها اشتغال بطلب العلم ولكنها باغَتَتْها المنية في حداثة سنها وأنا لا أعرفها لأنها ماتت وأنا صغير لا أعقل وإنما أخبرت عنها، ومن النوادر أنني أدركت جدتي لأمي وجدة أمي وجدة جدتي، وكل واحدة منهن من بيت من البيوتات الكبار في القبيلة.

وكان جدي لأمي عبيدالله، علّامةً شاعراً وشعره وسط، وله اليد الطولى في الفقه والعربية ولا سيما معرفة اللغة، قال لي يوماً شيخنا عبدالله بن رحمين (حامّنّ) الكريمي: كان جدك عبيدالله يحفظ مقامات الحريري

عن ظهر قلب وله مناظم حسنة في الفقه وغيره، وقد أدركته إدراكاً لا يذكر، وأخباره الشهيرة أن عبيداً لرجل منا أبِقوا فجاء أناس من قبيلة بني ديمان وادّعوا على صاحب العبيد أن عبيده أخذوا لهم مالاً في حال إباقهم، فحصل بينهم وبينه نزاع وخصام، فتداخل عبيدالله في المسألة على وجه المشورة والصلح وبيَّن لهم الحكم، وكأنهم لم يقنعوا فأتاهم بحاشية الحطّاب على مختصر خليل (في فقه مالك) وأراهم المسألة منصوصاً عليها، وقال يخاطبهم:

أيا أنوف الزوايا مرحباً بكمُ
إلى عنان السماء، بل قل ذلكمُ
إن تسألوا ما بأيدينا بلا ثمن
جادت، وإن جلّ، أبدينا به لكمُ
لكن أتيتم لأمر دون مدركه
بونٌ بعيدٌ، وهذا لم يَلِقْ بكمُ
إسلام عبد بأرض الروم مأبقه
أو القضا عنه فيما يدعي لكمُ
أنى يكون القضا من غير بيِّنة
ولا اعتراف ودون الحلف، ويَحْكُمُوا !

فأمهلوا خصمكم ما اللّه أمهله
كما به حَكَمَ الحطّاب بينكمُ
فما به حَكَمَ الحطّاب ليس لنا
بِــرَدِّه، قبلاً، كلا، ولا لكمُ
ذروا الخصام إلى وجدان أعبده
فَهْوَ الجميل عليكم، وَهْوَ حكمكم

وقنعوا وانصرفوا، وسأذكر جملة من قصيدة له فيما بعد، إن شاء اللّه تعالى.

وأم عبيد اللّه غيد بنت الشيخ عبدي المتقدم الذكر، يقال إنها رأت في المنام كأنها تحفر حفرة تريد أن تركز فيها خشبة، فانتهت في حفرها إلى شيء مائع فتناولت منه بإحدى أصابعها وذاقته فإذا هو عسل فقصّتها على معبّر، فقال لها إن صدقت رؤياك فإن أحد بنيك سيكون عالماً، وسيحيي ما اندثر من علم أسلافه، فكان كذلك.

وحيث إن الشعر هو ديوان العرب الكافل بحفظ أنسابهم وضبط أسمائهم وتخليد مآثرهم، رأيت أن أذكر بعض ما يحضرني من الأبيات الشعرية، المذكور فيها أحد أسلافي المذكورين، فأقول: أما جدّى حبيب

ابن أحمد فهو المعني بقول الأحول أحد شعراء قبيلتنا المجيدين، من قصيدة له مشهورة، قالها في حرب جرت بيننا وبين قبيلة يقال لهم ذوو علي، من مدة تسعين سنة تقريباً، لا أعاد الله مثلها على المسلمين، أولهما:

تداعت حداة الركب من كل جانب
فودع سليمى قبل سير الركائب

الى أن قال:

همو جَلَبوا الحرب العوان فلم تَزَلْ
تبيد وتقصي منهمُ كلَّ جالبِ
شفى التائبون الغيظ من نهب مالهمْ
ولو علموا لم ينهبوا مال تائب
وزرناهمُ منَّا ومن آل فائقٍ
بأسد وأسد من حبيب وطالبٍ
وإخواننا البشم الألى إن تقحموا
لقاء تجلى بأسُهم غير كاذب

وهي طويلة وجيدة ومنها:

ألا لا يرم حيٌّ حمانا فإننا
نبيع لدى الهَيْجَا حريمَ الكتائبِ

بنو الحرب لا نعطي القويَّ مفادة
ولا نَتَشكَّى من نـزول المصائبِ
ولكننا نحمي الحمى ونحوطه
ونـزواً وصبراً تحت كل النوائبِ

وأمـا أحـمـد بـن أعـمـر، فـإن ذكـره في الشعر كثير، لأن أبي فخد كبير، وفيهم الرئاسة، ولم أزل أسمع من الأجانب تفضيل بني أحمد على بقية الأفخاذ وآخرين، سمعت ذلك معه ابن عبدالحميد العلوي.

ولما قدمت المدينة آخر سنة ١٣٣٣هـ، اجتمعت بابن عبدالحميد العلوي بالحرم الشريف، وكان قد سمع من غيري أنني حسني، فسألني من أيهم أنا؟ فقلت له: أعمري، فقال: من أيّهم؟ قلت: أحمدي، فقال: «ذلك اللباب» هذا لفظه، ثم شرع يتكلم بمناقب بني أحمد يخاطب الحاضرين، ويحلف أنه ما رأى مثلهم، وكان يعرفهم، وجعل يسألني عنهم فرداً فرداً، فممن ذكرهم من الشعراء المختار بن المعلّى (المتوفى عام ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣٠م)، وهو من بني طالب بن أحمد، في قصيدة أولها:

ألمّت بنا وهناً بأردانها لبنى
لدى ضُمَّرٍ تحكي رقاق القنا لبنى
بمغبَّرةٍ للجنّ فيها غماغمٌ
تطير حُشاشات النفوس بها جبنا

إلى أن قال:

وفضَّلنا ربُّ العباد عليهم
كما فضلت على اليسار اليد اليمنى
أبى اللّه إلا أننا آل أحمد
بنا المجد إن هُدَّتْ دعائمه يُبْنَى

وهي طويلة، و (لبنى) الأخير اسم امرأة، وهو فاعل ألمّت، والأول (لبنى) نوع من الطيب، وهو مبتدأ خبره بأردانها، والجملة حال من فاعل ألمّت، وممن ذكرهم ابن السيد البدى، في قصيدة له يمدحهم بها، أولها:

أعراك وجد بعد بين نوار
من بين دور من نوار عوارى
إذ دُرْت بين ديارها متحيِّرا
ولها وما بالدور من ديار
وجدٌ عراني لا لفرقة تندم
يوماً ولا من مهددٍ ونوار

من حب أهل المكرمات وذكرهم
مـن آل عـمـر صـفـوة الأخـيـار
أعني سلالة أحمدٍ مَنْ عزُّهـم
عــمّ الـــورى بـــإرادة الجـبـار

إلى غير ذلك من الأشعار التي لا تحضرني الآن.

وأعمر كداش هذا، أبو، بطن كبير يجمع عدة أفخاذ غير آل أحمد، وأما قولنا: الحسني، فنسبة إلى الحسن بن أبي الحسن وليس هو ابن علي بن أبي طالب، وإن كان يقال إنه من ذريته كما سيأتي، وإنما هو حسن آخر، جد قبيلة كبيرة مشهورة قديمة تنزل القسم الجنوبي من صحراء شنقيط، وناحيتهم التي هم فيها تسمى القبيلة (الكبلة) ومياههم على الخصوص تسمى العُقل، وقد أكثر الشعراء من ذكرها، من ذلك قول محمد بن بدّي العلوي (توفي سنة ١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٨م):

أرض العقيلات يا برقَ الحيا وعلى
أحيائها لعيـون الشـائمين و لُـحْ
حول المليحة خَيِّم واغْدُونَّ، ورح
ثُمَّ اغْـدُوَنَّ ورح ثم اغدونّ ورح

وهي أبيات أكثر من هذا، وكقوله أيضاً في مطلع قصيدة له:

شمّر لعل رسيم الأينق الذلل
من عُشَّرٍ لي يدني ساكنَ العُقَلِ

وكقول محمد بن حنبل، أحد شعرائنا المجيدين وعلمائنا المحققين (توفي سنة ١٣٠٣هـ - ١٨٨٥م) من قصيدة له طويلة، سأذكر إن شاء اللّه تعالى جملة منها:

فرنا العقل إليها مثلما
نظر الصبّ إلى الخَوْد الوَصِبْ

وقوله منها:

فكأن المزن تبكي مُلحِدا
في رُبى العقل بدمع منسكبْ

وقوله منها:

يا لها من غاديات قد كفت
ماتح العقل لها شد الكرب

إلى غير ذلك من الأشعار.

وبنو حسن ثمانية بطون كبار، أحدها بنو أعمر كداش، إلا أني لا أحفظ من بني أعمر كداش وحسن من الآباء ولا أظنهم كثيرين، ومما اشتهر به بنوحسن أكثر من غيرهم كثرة الشعراء المجيدين، حتى إن الشعر يكاد يكون فيهم طبعاً جِبِلّياً موروثاً، ولذلك قال محمد بن سالم البنعمري أحد شعرائهم (توفي عام ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م):

النحو علم كفاني من تعلّمه
ملجُ الثدي ثدي الهيف من حسن

وكقوله:

مصداق أني كريم العيص منتسبٌ
إلى قريشٍ بيوت العزّ والجدلِ
نسجي القريض وإحكامي قوافيه
ولا أميّز بين العطف والبدل

ولنا عودة إلى هذه الأبيات، إن شاء الله تعالى.

ولما اجتمعت بالشيخ سيديا بن محمد بن الشيخ سيديا الكبير الثندغي وهو عندي كما قال الشاعر:

إذا قالت حذام فصدقوها

فإن القول ما قالت حذام

جعل يسألني عن شعراء قبيلتنا، ويستنشدني أشعارهم، فأسمعته جملة مما أحفظ، وأنشدته قصيدة لي أولها:

أبكاك عذريّ الهوى يوم النوى

وهل البكاء دواء عذريّ الهوى

بان الجواء من اللوى فقد اللوى

إذ بان منه الحيّ مسلوب اللوى

وكان ممن سمعته يقول إن الشعر بنى بيته في بني حسن، وفرق أولاده في القبائل، وذكر لي أنه جاءه كتاب من الشيخ عبدالجليل برّادة أديب الحجاز ولغويّه في وقته (توفي سنة ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٨م) يطلب منه أن يدوّن له أشعار شعراء الشناقطة ويكتب له تراجمهم، ثم قال لي: ومعظم ذلك سيكون منكم، قال: وعزمي أن أكتب إلى كل بطن من بطون بني حسن أن يدوّنوا لي شعر شعرائهم ويكتبوا لي تراجمهم.

ولما اجتمعت بالهيبة بن الشيخ ماء العينين الحوضي في مدينة مراكش (توفي سنة ١٣٣٦هـ - ١٩١٩م) وعرّف بي، جعل يسألني عن قبيلتنا عموماً، وخصص منها أناساً فيهم المختار بن المعلّى وكان قد بلغه بعض شعره، واستشهدني من شعره، فأسمعته أشياء منه كما سيأتي، وقال لي: كيف تَزنون درجته في الشعر؟، فقلت له: نرى أنه اليوم هو أشعر القَبيلة، فقال: إذاً هو أشعر الناس، فقلت له: أنا لا أقول ذلك، وإنما أقول إنه أشعر قبيلتنا، فقال: أثْبِتْ لي أنه أشعر قبيلتكم أُثْبِتْ لك أنه أشعر الناس على الإطلاق.

وبالجملة، كونهم يفوقون غيرهم من القبائل في الشعر أمر معلوم عند الخاص والعام من أهل تلك الناحية، وإنما ذكرت هذين الرجلين لمكانتهما عند الذين يعرفونهما، فإنهما من رؤساء أهل شنقيط، ومن أهل العلم والمعرفة، وليس من قبيلتنا، وهذا كلٌّ منهما كما ترى، مع أنه يوجد أفراد من شعراء القبائل يفوقون بعض شعرائنا، كابن رازقة وابن بدي العلويين، وكابن طلبة ومولود اليعقوبيين، ومحمد ابن الشيخ سيديا، وغيرهم، إلا أنه في قبيلتنا أعم وأكثر.

هذا وقد أكثر الشعراء من ذكر بني حسن، فمن ذلك قول محمد بن سالم المتقدم وقول محمد بن حنبل، وكان قد تغرّب فصار يحنّ إلى أهله، ويقول:

ياليت شعري وصرف الدهر دوّار
وكل شيء له وقت وتقدار
هل يلهينّي شباب من بني حسن
بيض الوجوه كرام الأصل أخيار
تلهيك منهم خصال لست تسأمها
علم وحلم وآداب وأشعار
سيّان ذو صغر منهم وذو كبر
صغارهم في مجال العلم كبّار
لا ينشرون ضخام الكتب بينهم
إلا بدت من بطون الكتب أسرار
لهم سجايا وأخلاق مهذبة
كنفحة الروض إذ جادته أمطار

ومن ذلك قول الأحول:

خضنا حماها وجنّبنا بني حسن
من كلها حمل أوزار فأوزار

وهذا البيت من قصيدة له غرّاء، وهي طويلة أولها:

جادت بطيف سرى لي أم عمار
لله .. لله .. لقيا طيفها الساري

أهلاً به من ملمٍّ صوبنا قذفت
بيداً لبيدٍ وأصحاراً لأصحار

لا وصل من أم عمار أؤمله
ما لم تزر في منامي أم عمار

حتى صفت منه بعد الهجر لي صلةٌ
تُشفي وإن زاد من غيداءَ مهجار

لو كنت زير نساء كنت زائرها
بل زير حرب أخوها غير زوار

إنا بنو الحرب لا نشكوا أظافرها
لو جرّحتنا بأنياب وأظفار

خضنا حماها وجنّبنا بني حسنٍ
حملَ المغارم من حملٍ وأوزار

والخيل فيها على الأبناء نؤثرها
صوناً فيا لك من صون وإيثار

والوفد نقريه في اللأوى ونكرمه
طول الثوى إذ يجل المكرم القاري

ما أبعد العار منا في الحروب وما
أدنى سيادة محمود من العار
لما رأوا عابد الرحمن منقبضاً
تحت العجاجة مثل الضيغم الضاري
ولوا فرادى ومثنى مدبرين ولم
يثنوا من الرعب وجهاً بعد إدبار

ومن ذلك قول الشيخ عبدي المتقدم الذكر، وكان في سفر، فنزلوا على إنسان لم يعاملهم بما يليق لهم، تركهم أولاً ثم بدا له عمل عشاءً لهم أتاهم به بعد ما ناموا وذهب أكثر الليل، ولم يشتهوا الأكل في ذلك الوقت، فقال عبدي في تلك القضية شعراً منه:

يا حاملَ الخبز لا تقربْ به سحراً
ابنَيْ أبي الحسن القارين بالحسن
لا أشتهي الخبز إلا في النهار ضحىً
مالي وللخبز بعد النوم والوسن

وأما رفع نسب حسن هذا إلى من فوقه، فلم أقف عليه ولم أبحث عنه حين كان يمكنني البحث.

ولم أزل أسمع من صغري من أهلي وغيرهم من

القبيلة ومن الأفاضل من غير قبيلتنا أننا أشراف حسنيون، ومن أجلّ من سمعت منه ذلك من غير قبيلتنا محمد فال ابن العاقل الديماني (المتوفى سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م) فإنه رآني يوماً في مدينة سبتة، فسألني ممن أنا فأخبرته أني من بني حسن، فجعل يقول أنعم وأكرم، بنو حسن شرفاء يكرر ذلك، وشهادته عندي تعدل شهادة كثيرين، لما كان عليه من العلم والورع والنباهة وعدم الغفلة وسعة النظر في كل شيء، ومن أجلّهم شيخنا أحمد سالم بن الحسن الديماني (توفي سنة ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م) فإني سمعته غير مرة في مكة والطائف يقول ذلك لي ولغيري، وسمعت محمد محمود الثندغي الشنقيطي (المتوفى سنة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م) الذي كان في عُمان وتوفي بالعراق يقول ذلك وشهادته عندي تعدل شهادة كثيرين لما كان عليه من العلم والورع والنباهة وعدم الغفلة وسعة النظر في كل شيء، ويقول إن له خؤولةً في بني حسن ذكرها لي ونسيتها، ويقول إن أهله كانوا يعدّون ذلك رحماً بينهم وبين رسول الله ﷺ وسمعت بأبي أحمد بن مصطفى بن العربي الأبييري

الشنقيطي وقد تذاكرنا النسب، وقلت له: إني لا علم لي بحقيقة نسبنا وإلى من ينتهي من أهل البيت، فقال: سمعت أنكم من ذرية سليمان بن عبدالله.. قلت: ولست على ثقة من هذا الكلام وهو ممكن، فإن سليمان هذا، ذكر المؤرخون أنه دخل إلى أفريقيا بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية، وأن له عَقباً في المغرب والسودان وأن أكثر ذريته خفي أمرهم، وأن المنتسب إليه يحتاج إلى زيادة بيان تؤيِّد دعواه، فيحتمل أنهم من ذريته.. والله أعلم.

وأخبرني الشيخ أحمد بن الأمين العلوي الشنقيطي نزيل القاهرة (السابق ذكره) أنه وقف على كتاب للشيخ العلامة عبدالله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي (المتوفى سنة ١٢٣٣هـ - ١٨١٧م) تعرّض فيه على سبيل الاختصار للقبائل الموجودة في بلاد الشنقيط، وبيّن فيه الذين هم من العرب والذين هم من البربر، وقال إنه قد ذكر قبيلتنا من جملة القبائل العربية، ولم يزد على ذلك.

ولما حججت سنة (١٣٣٦هـ - ١٩١٥م) اجتمعت بأناس من أهل شنقيط حديثي عهد بالبلاد، وذكروا لي أن

حكومة فرنسا بعدما احتلت البلاد بعدي، طلبت من الشيخ سيديا بن محمد بن الشيخ سيديا الكبير بن المختار بن الهبة الثندغي، أن يصنف لهم كتاباً يبين لهم فيه أحوال القبائل الموجودة في بلاد شنقيط، ويبين لهم عربهم من بربرهم، وأنه فعل ما طلبوا منه، وأنه ذكر عن قبيلتنا أنهم من ذرية محمد بن الحنفية، ولئن أحياني الله لأبحثنّ عن هذا الكتاب حتى أقف على كلام هذا الرجل في هذه المسألة، فإنه ممن يعتمد عليه في هذا، وقد كان رجل من قبيلتنا توجّه إلى المشرق قبل ولادتي وكنت أسمع به وجال في الآفاق، واستوطن أخيراً مدينة سواكن، وتزوّج فيها، وتوفي في حدود توجهي أنا من الوطن، وسألت عنه الشيخ الشنقيطي التركُزي الذي كان في مصر، فأثنى عليه في كثير، وأخبرني بعض حجاج المغاربة ممن ليس بيننا وبينهم علاقة أنهم قدموا عليه في سواكن وأنه أراهم منشوراً سلطانيّاً عليه عدة طوابع ملوكيّة مضمونه ثبوت شرف قبيلة بني حسن، والله أعلم بصحة ذلك.

وسمعتُ جماعتَنا يذكرون مراثيَ منسوبةً إلى أناس أهل صدق وصلاح، مستأنسين بها بصحة شرفهم، ولكني حيث لم يمكنني إيرادها بأسانيد صحاح متصلة إلى أربابها، ضربت عنها صفحاً وإنما أذكر أنني كنت وأنا بالطائف رأيت في النوم إحدى أمهات المؤمنين ويغلب على ظني أنها أم ميمونة بنت الحارث الهلالية، أو حفصة بنت عمر، رأيتها كاشفة عن وجهها بحضرتي، وعند ذلك الوقت فإن والدي تزوج بها ومات عنها، فقصصتها على الشيخ أحمد سالم بن حسن الديماني، فقال: الرؤيا هذه تؤيّد صحة شرفكم، ثم لا يخفى أن كونكم من قريش ومن أشراف العرب لا تنافي بينها، فإن كل شريف قرشي، كما أن كونهم من قريش ذريّة محمد بن الحنفيّة لا ينافي كونهم أشرافاً، وإنما الخلاف في كونهم من ذريّة الحسن أو محمد بن الحنفية لا غير، وإذا ثبت كلام الشيخ سيديا فهو الراجح عندي لمكانته من العلم وسعة الاطلاع، وأما قول محمد بن سالم (المتوفى سنة ١٣٠٧هـ) المتقدّم:

مصداق أني كريم العيص منتسبٌ

إلى قريشٍ بيوت العزّ والجدل

نسجي القريض وإحكامي قوافيه

فـلا أميّـز بـين العطف والـبـدل

فلا دليل فيه على المدّعي، فإن تمكّنَ الإنسان من نسيج القريض وإحكام قوافيه مع الجهل بالنحو غاية ما يدل عليه أنه عربي فقط، وأما كونه قرشيّاً أو غير ذلك فلا يدل عليه، مع أننا لا نسلّم بدلالته على كونه عربي النسب؛ لاحتمال أنه تعرّب وتطبّع بطباع العرب وتعلّم لغتهم فصار عربي الطبع واللسان، وأيضاً قوله إنه لا يميّز بين العطف والبدل فيه احتمال يحتاج إلى تفصيل وإبهام يحتاج إلى تبيين، فإن أراد عطف البيان وبدّل الشيء بالشيء فالأمر سهل، فإن عدم التمييز بينهما لا يمنع غير العربي فضلاً عن العربي من نسج القريض ولا غيره؛ لأنهما كالشيء الواحد يتفقان أكثر مما يفترقان، وقد أشكل التبيين بينهما على غيره، قال الرضي إنه لم يظهر له فرق جليّ بينهما، إأنه لا يراهما إلا شيئاً واحداً، ولا يظن ابن سالم

يعني إلا هذا فإنه كان أجل أن تلتبس عليه بقيّة الإبدال بغيرها، وعطف النسق بغيره، كما أن قوله:

النحو علم كفاني من تعلّمه

ملج الثدي ثدي الهيف من حسن

لا يفهم منه أنه لا يعرف النحو بالفعل وإنما مقصود أنه ما كانت به حاجة لتعلّمه لو كان القصد مجرّد التكلّم فقط، ولكنه محتاج إليه لأمور أخرى، كمعرفة اصطلاح العلماء والتكتب وتعليم الجهال به ومقاومة من يريد الاعتراض ونحو ذلك ما في البيت من المبالغة.

وأما كونه لا يعرف شيئاً من النحو أصلاً، فلا يُتصوّر، فإنه تربّى في حضون المدارس وبين أظهر العلماء، وكان لسان القبيلة في وقته.. مرشّحاً لمقابلة الوفود والتكلّم في المحافل ويطلب لذلك ويحضر إن كان غائباً لما يعلم من كفاءته، وأنه ليس كل أحد يسدّ مسدّه، ويقوم مقامات حصبة ويلج مضايق لا يتخلص منها إلا بكامل آلاته، مهما كان عليه من ضآلة الجسم، ورثاثة الهيئة وقلة المال، وهو القائل ـ وكان له عبيد في مزارع وجاء زمن

الحصاد وكانوا يفدون على زرعهم ويتركونه في البيت وحده، ليس معه إلا كلب لهم اسمه «فيداح» ـ فقال:

أصخْ لسرد قريض الشعْرِ فيداحُ
إن كنت ممن لسرد الشعر يرتاحُ
قد أصبح الشعر عمري لا رواة له
إن لم يكن من رواة الشعر فيداح
نعمَ المرافقُ لولا قبحُ منظرهِ
ينفي الذئاب إذا يعوي فتنزاح
إنْ يطرِحوني أرْضاً لا يُصاحبني
إلاّ ألص هريت الشدقِ نبَّاح
فقد يُسامرُني في مجلس عَطِرٍ
شُمُّ الأنوف لهم كُتْبٌ وألواح

وهو القائل:

أميمة إن يكن خَلقاً ردائي
فقد يبلى جفير الهندواني
وإن يك يا أميم الجسم خلا
فما يزري النحول بأفعوان
وإن لم ألف ذا مال فإني
أنا الطرف المضمّر للرهان

وهو القائل، وقد وردوا ماءً ووقع عليه الزحام ولم يحصل له سقيٌ ما معه إلا في أخريات الناس:

أميمة ما سمعت بمثل قومي
وإن كانوا ذوي حسبٍ ودينِ
فيا هونَ المحافل بي وإن هم
تدانوا للمشارب أخّروني

فمن كان معدّاً لمباهاة المحافل، مضمراً للرهان، يتكنفه أصحاب الكتب والألواح في ظلال المدارس، لا أتصور أن يكون جاهلاً بضروريات النحو، وبالجملة ليس في بيته دلالة على مدعاة ولكنه عرض له معنى لطيف فنظمه على عادة الشعراء، ولا ينبغي أن الذين يتكنّفونه ولهم كتب وألواح أطفال، بل هم رجال يطلبون العلم، فإن عادة أهل بلادنا في طلب العلم كتابة المتون في ألواح من خشب ليحفظوها، ولا تجد طالب علم منهم إلا وعنده لوح، ولهذا يكثرون من ذكرها في أشعارهم كهذا الشعر المتقدم.

وكقول الشيخ سيديا الكبير في قصيدة له:

فَمَا أفْسَدَ الْألْـوَاحَ وَالْهَمَّ وَالتُّقَى
كَبِيضِ التَّرَاقِي مُشْرِفَاتِ الْحَقَائِبِ
مِرَاضِ الْعُيُونِ النُّجْلِ حُوٍّ شِفَاهُهَا
رِقَـاقِ الثَّنَايَا حَالِكَاتِ الذَّوَائِبِ

هذا غاية ما عندي عن نسب قبيلتنا في الوقت الحاضر، ويغلب على ظني أني إن كاتبتهم، وبحثت ما عندهم عن نسبهم، يتحصّل عندي أكثر من هذا، ولعلي أكمل ـ إن شاء اللّه تعالى.

وأما بقية أحوالهم، فليست مما قصدنا ذكره وتستدعي كلاماً طويلاً إلا أننا نقول على سبيل الاختصار إنهم بادية وهم مع بداوتهم أحسن حالاً في أمور كثيرة من كثير من القرى، وهذا أمر يستنكره كثير من الناس، لأنه خلاف العادة، وهم مشهورون من حيث المجموع بالتواضع والخمول وبالصلاح والديانة، وإن كان يوجد فيهم خلاف ذلك، وخرج منهم كثير من العلماء والشعراء، وقد تقدم أنهم مشهورون بالشعر أكثر من غيرهم.

ومن شعر جدي عبيد الله (بن أبّن الحسني) في وصف رعاة للإبل أقام معهم مدة ورأى منهم أحوالاً غير مرضية، ذكر منها شيئاً من أحوالهم وشيئاً من أحوال أهله، ومنها:

لَمجلسُ علم من كرام أجلَّة
حديثُهُمُ عندي شفاءٌ لعلَّتي
يخوضون بالذوق الصحيح بحوره
فيبدو كمين الدر من كل مِلَّة
يعاطونني أنباء بَكْر وتغلب
وننشد طوراً شعر غيلان مية
أحب إلينا من أناس عهدتهم
حديثُهُمُ بانت وطاشت وضلَّت
ومندت وحالت عام أول وانغشت
وظرب ومل الحبل منها وملت
وسرت إلى «كاوات» أنشد بكرتي
وثم بنو «بانيَ» والشهب حلت
وخبرني «اكتاوشن» و«اعبيد» أمرَها
إلى غير هذا من خصال مخلة
ترى الفخر أن تغدو بأذناب صرمة
تظل ظماء حولها حيث ظلت

وبالشمس لا تنفك تكوى جباههم
وأرجلهم تشوى على حر ملة
فلأيا تصلي فرضها وأكفها
بها عبس الأشوال إن هي صلت
وتسبيحها عند الهبوب من الكرى
وتحميدها أن اللقاح تولت
وحمل سرير الشيخ أجدى على الفتى
من المحلب المحمول إثر السرية
وقوم ثوت بين المياه بيوتهم
فتغدو قعوداً في الكنان المظلة
وتسعى عليهم بالمعين إماؤهم
على حُمُر أهليَّةٍ مستضلَّة
ولما يهمُّوا بالرحيل وإن أتى
عليهم بمغناهم عديد أهلة
أحب إلينا من أناس كجنة
يهيمون دهراً في الفيافي المضلة
إذا جِئْتها عند المقيل وجدتها
بأنفاقها أو بالمبيت اضْمَحَلَّت

وهـم بالنظر إلى طـول المقام وكـثرة الانتقال على قسمين: قسم حواضر إقامتهم أكثر من تنقلهم، ينزلون ناحية عند الماء ويمكثون في المنزل الواحد أشهراً تكثر بحسب المرعى، ثم يرحلون إلى ناحية أخرى عن ذلك الماء نفسه إلى ماء آخر، ومساجدهم وبيوتهم ومدارسهم عامرة، وطلب العلم عليهم أيسر ووسائل الراحة عندهم أوفر، وبيوتهم من شعر، ومساجدهم عُرش، والمدارس تكون بيوت شعر وتكون عُرشاً، ولمحمد بن حنبل قصيدة في وصف عرش مدرسة، لا أحفظها، منها قوله:

بـنـيـنـاه أعــوانــاً فـصــار كـأنـه
مـشـيّـدة أركــانــه بـالجـواهـر

والقسم الآخـر رحّـالـة، يقيّضون مع هـؤلاء، فـإذا نـزل المطر وأمطارنـا خريفية رحلـوا وجعلوا يتتبعون الغيث، وهم مع ذلك يخطون المساجد ويحافظون على الجماعات وعندهم مدارس، إلا أن انتظام الأحـوال عندهم بالضرورة أقل منه عند الأولين.

وأسلافي لا يكونون إلا مع القسم الأول، إلا أن والدي

وخالي تارة ما يكونان مع القسم الأول وتارة مع الثاني، والقسم الأول يُكثرون من اقتناء البقر لأنه لا مشقة عليهم في اقتنائها؛ إذ لا يحتاج هناك إلى راع ولا علف ويحتاج إلى السقي فقط، ومنهم من لا يقتني من الماشية إلا البقر، ومنهم من يكون عنده غيرها من الإبل والغنم أو أحدهما، ويكون عند الواحد المئة من البقر والمئتان والثلاث وأقل وأكثر، ينتفع من مجلها وزبدها ودهنها، ويبيع منها في السنة على قدر ما يلزم لمؤونته.

وفي سنة ١٣١٠هـ أصاب البقرَ مرضٌ يقال له في اصطلاحهم أبو مرارة، أفنى البقر حتى كاد ينقرض، وحصل على الناس من ذلك ضرر عظيم ولا سيما من ليس عنده إلا البقر، يصبح الرجل منهم غَنياً غِنىً واسعاً ويمسي فقيراً فقراً لا مزيد عليه، وأكثر الناس الكلام في ذلك ونظموا الشعر، فمنهم من سلك طريق الجد ومنهم من سلك طريق الهزل.

وممن سلكوا طريق الجد خالي محمد بن عبيد، فإنه أفتى بوجوب تنقيص مهور النساء وجهازهن وتنقيص أمور

معتادة عندهم في الأعياد من كسوة وغيرها، وعمل في ذلك منظومة وأكثر من الاشتداد على ما ذهب إليه، ومن جملة ما قال أن الشرع رغّب من تقليل المهر ونهى عن المغالاة فيه وحث على التناكح، وأن من قواعد الشرع رفع الحرج وارتكاب أخف الضررين وتقديم الأهم على المهم وأشياء كثيرة من هذا القبيل، وقال إنه إذا لم يحصل قرار على تقليل مؤونة النكاح وتوابعه سيكون كل ذلك سيئاً لامتناع كثير من الناس عن التزوج لعجزهم اليوم عن عوائدهم، وتلقّى العقلاء وأهل العلم والمعرفة كلامه بالقبول، وكاد يُؤمر به، لكن تصدى له أحمد بن محمد بن حبيب الله من آل حبيب بن أعمر أحد فقهاء القبيلة، فعارضه ونقض ما قاله، ومن جملة ما قاله: إن هذه ليست بأول نكبة أصيب بها العالم،بل لم تزل الشدائد تنزل بالناس من قديم الزمان مع وجود العلماء في كل عصر، وأنه لم يؤثر عن أحد منهم مثل ما ذهب إليه محمد بن عبيد الله، ونحو هذا الكلام، وجرت بينهم ردود عديدة مشتملة على مباحث مفيدة وكلها نظم، وِلكني وللأسف ليس معي الآن منها شيء، وكلام خالي أَقْصَدُ بالفقه وأَوْفَقُ لمقاصد الشريعة، والجيبي وإن كان

فقيهاً إلا أن خالي أعلم منه وأوسع دائرة ولا سيما في أصول الفقه وعلوم اللسان، وأقدر منه على النظم وأجود قريحة.

وأما من سلكوا طريق الهزل فكثير، إلا أني نسيت أكثر ما بلغني من أقوالهم، فمن ذلك بعض قول ظرفاء قبيلتنا:

أبعد انقراض المال في آخر الدهر
ولم يبق في الأيدي سوى غنم البحر
يروم الفتى تزويج غير غنية
وذاك إذا ما كان فقر على فقر
فأليَق شيء بالفتى بيت أمه
يقيم به حتى الرحيل إلى القبر

واشترى آخر عنزاً ولم يعجبه حليبها، فقال أبياتاً لا تحضرني منها سوى قوله:

فجاء حالبها إذ قام يحلبها
بنصف مُدٍّ صغير نصفه شعر

وقال آخر في أبيات له لا تحضرني:

إن القوافي جميعاً كلها افتقرت
لما أصاب أبو مرّارة البقرا

وأكـثروا مـن هـذا النمط، ثـم إن الله تعالى لطف بالناس أكثر مما يظنون.

أما القسم الثاني فإنهم كانوا يكثرون من اقتناء الإبل، وقد لا يكون له بقر وغنم أو أحدهما، وهناك طائفة تسمى باللمحة، ليست من القبائل الأصلية أشبه شيء بالصلب في بلاد الشرق، هم رعاة مواشينا نأخذ الزائد عنهم من الحلائب وبقية الماشية فنتركها عندهم، فإذا أغرزت الحلوبة أرسلناها إليهم وأخذنا غيرها إن كان، ولهم أُلف بالبراري وجلادة على الحر والبرد وديانتهم ضعيفة.

وأما القسم الثاني، فمما يبين بعض أحوالهم أنه كان هناك فريقان من رحالتنا في أحدهما محمد بن حنبل وفي الآخر الحاج حامد البلوي، كانا متجاورين، وكانت السنة شهباء (مجدبة) واتفق أن الذين فيهم حامد ركدوا وقل تنقلهم، وكانت عاقبتهم حسنة، وكان في الآخرين رجال خفاف فأكثروا التنقل في طلب المرعى وتعبوا ولم يحصلوا على طائل ورجعوا إلى جيرانهم، فكتب حامد إلى محمد بن حنبل:

ألا أيها الشيخ الكريم المصمِّم
على السير والترحال للغرب مهيم
أتضرب في الآفاق من غير رائد
وتتبع في الآراء من ليس يعلم
إذا ما وجدتم غبطة في مجالكم
فإنا وجدنا فوق ما قد وجدتم
فمهما دعتنا للترحل حاجة
رحلنا وإلا فالإقامة أقوم

مهيم: اسم فعل بمعنى أخبرني عن أمرك أو ما شأنك، فأجابه محمد بن حنبل، وكان في نفسه شيء على أولئك النفر الذين كانوا السبب في تعبهم، فقال:

أمن حجَّ بيت الله واستلم العُلا
وجدّ به سيرٌ إلى المجد مجدم
بلينا بقوم بادي الرأي طاوعوا
وآراؤهم شتى وكلٌّ مصمم
يقلّبنا هذا وهذا كأننا
نحائص يقلوهن فلوٌ مكدَّم
فيوماً إلى أقصى المغارب نرتمي
ويوماً إلى أقصى المشارق نرسم

نخوض بحور الآل والظل ما صح
ونجتاب عرض الليل والليل مظلم
متى ما نوا في مخصب الأرض أصبحوا
على جمرة هذا السوام أضعتم
وإن عَنَّ جَدْبٌ جدَّ في السير جدهم
كما صاح بالمنزول جيش عرمرم
إذا ما نزلنا منزلاً قال قائل
أمامَكُمُ مرعى دآه محيحم
فوافوه من قبل المؤيد عاجلاً
ألا إنما سبق المؤيد أحزم
فجئناكمُ والظهر تدمي ظهوره
وأشوالنا عُوج من الهزل كُظَّمَ
على إننا والحمد لله نالنا
من الله فضل لا يعدّ وأنعم

محيحم راعي إبل، أنا أعرفه، كان يرعى إبل أخوالي، والمؤيد هو ابن المختار بن قطرب أحد رؤساء بني ديمان قبيلة تجاورنا، وكان سبوقاً إلى المراعي، وكان مولعاً بالصيد، فصارت تضرب به الأمثال، كما في هذا الشعر، وكقول أحد شعراء قبيلته في أبيات له:

أعـدَّ لنـأي الـدار منها عـرنـدَدَا
يـقـيـد أولى الأبـــدات مـقـيّـدا
إذا رعـتـه يـنـسـاب حـتـى كـأنـه
أوابـــدُ آرام رأيـــي الـمـؤيّـدا

هذا ما أردنا الآن ذكره مما يتعلق بالقبيلة.

وأما أنا، فإني ولدت سنة اثنتين ـ أو ثلاث ـ وتسعين ومئتين وألف، وذلك في شهر ربيع الأول، وحفظت القرآن غيباً قبل البلوغ، وحفظت في السيرة النبوية بعض مناظم، وابتدأت في طلب العلم على خالي محمد بن عبيد اللّه، ثم قرأت على يد مشايخ غيره، أكثرهم إليَّ نفعاً محمد بن بنيامين وعبداللّه بن حمين وعبد القادر المجلسي، فقرأت من النحو الآجرومية ومواضع من الألفية متفرقة، ومن الفقة منظومة ابن عاشر وبعض رسالة ابن أبي زيد القيرواني (للغلاوي من قبيلة الأغلال) ومواضع متفرقة من مختصر خليل (في فقه مالك).

وأما علم الحديث، فإني لم أشتغل به في بلادي ولا دراية لي به، ولم أر من يشتغل به عندنا اشتغالاً يذكر، وهو

في الجملة ويا للأسف، من أضعف العلوم عندنا، وسمعت محمد بن بنيامين يقول: آخر من كان عندنا يعرف الحديث محمد بنٍ حنبل، واخذت العروض عن خالي، كان يلقنني إياه تلقيناً سهلاً، فعرفته من دون أن أقرأ منه كتاباً، ثم قرأت بعض كتبه بعد ذلك على غير خالي، كما قرأت جملة من أشعار الجاهلية، كالمعلقات ودواوين الشعراء الستة وهم: امرؤ القيس والنابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة وزهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد وعنترة بن شداد وغير ذلك، وقرأت المقصورة والممدودة لابن مالك، وأكثر قراءتي للغة على عبدالله بن حمّين وعلى المختار بن المعلّى، وجميع مشايخي ما عدا عبدالقادر المجلسي من تلامذة محمد بن حنبل، وكانوا يحضّونني على تحفظ الشعر ولا سيما القصائد المحتوية على الحث على التعلم والتنفير من المثبطات كالغرابية واللوحية والبائية، والغرابية منظومة له يحث فيها على تعلم النحو، يقول فيها:

كل فتى شبَّ بلا إعراب

فإنه عندي كالغراب

وإن رأيــتــه لخــود عــاشـقا
فقل لها اتقي الغراب الناعقا
وقــل رأيــت الـعـجَـبَ العجابا
هــذا غـــزال غـــازل الـغــرابــا

ومنها:

عــار عـلـى حـسـنـاء ذات منصب
تــرى بـبـيـت مــع غـيـر مـعـرب
لا انـتـفـعـت بـالأكـل والـشـراب
مــن آثـــرت مـــالاً عـلـى إعـــراب
حـلـي الـفـتـى إعـرابــه لا مـالـه
ولا نجـــاره ولا حـــجـــا لـــه

وأول اللوحيّة :

عـم صـبـاحـاً أفـلـحـت كـل فـلاح
فـيـك يـالـوح لم أطـع ألـف لاح
أنـت يـا لـوحُ صـاحـبـي وأنيـسـي
وشـفـائـي مـن غُـلَّـتـي ولُـواحِـي
فانتصاح إمـرئ يـروم اعتياضي
طلبَ الـوفـرِ مـنـك شـرٌّ انـتـصـاحِ

بك لا بالثَّرى كَلِفْتُ قديماً
ومُحَيَّاكَ لا وجوهِ الملاحِ
رُبَّ خودٍ ماء النعيم عليها
جريان الزلال بالصفاحِ
تستبي المرعوي بنور الإقاحي
وجبين مثل انبلاج الصباحِ
وبجيد كَأنه حين يبدو
جيد جيداء من ظباء رماحِ
وعلى ثغرها بعيد كراها
طيّب الراح بالمعين القراحِ
خدلة غص قلبها وبُراها
غَصص المرط وَهْي غرثى الوشاحِ
لا تبالي هب الرياح إذا ما
أشفق الرسح من هبوب الرياحِ
قد تسليت عن رسيس هواها
بك حتى كأنني جد صاحِ
بل يميناً بواردات البطاح
يتبارين ضُمُراً كالقداحِ
قد برى النصّ نيّها والتغالي
ودؤوب الإمساء والإصباحِ

بعد خرق عبرنه بعد خرق
تقذف الطرف نحو خرق فساحِ
بعد ليل سرينه بعد ليل
تصل الفجر بانسلاب الرواحِ
أفتا الدهر هاجراً للغواني
ووصولاً للكتب والألواحِ

والبائية قصيدة له طويلة أكثر فيها من التفنن في أساليب الكلام على حسب ما توحيه إليه بلاغته، أولها:

أضرم الهمُّ سحيراً فالتهب
لمع برق بربيات الذهبْ
في شماريخ ثقال دُلَّح
كتهادي العيس في الوعث النكبْ
أسديات عليها ألوة
أن تجود الأرض سبتا وتربْ
جدن ذا الرسل بسيل مفعم
والمراجيع بسحساح لجبْ
وعلى ذي التيلميت استوسقت
لمزار الشيخ تهدي بالهضبْ

وانهمى بالعين منها أيمن

وبذي الغاب مياسير سكبْ

فحدتها الريح هوناً تقتري

كل واد ورهاء وصببْ

يرزم الرعد خطيباً بينها

كهزيم القرم في الشول الخدبْ

فرنا العقل إليها مثلما

نظر الصب إلى الخود الوصبْ

فأجنت حسداً أهضامها

لرباها والجماهير اللببْ

ثم وافتها رواء همعا

لذرور القرن لو لم يحتجبْ

بسجال من منيفات الذرى

وطف الأكتاف جمات السربْ

فكأنَّ المزن تبكي ملحداً

في ربى العقل بدمع منسكبْ

تذرع السرح صريعاً للقفا

خاشع الأوراق مرفوع الطنبْ

وتهد التل من أعرافه

بأخاديد تمليك رعبْ

يالها من غاديات قد كفت
ماتح العقل لها شد الكربْ
فتحلت بلجين حولها
من نضير النبت أبراد قشبْ
فإقام الذب في الروض الغنا
وأقام البتر في الماء الصخبْ
وشنوف الطلح قد نيطت به
كشنوف الغيد خضراً تضطربْ
والحمام الورق تشدو بالضحى
فتذوب النفس شوقاً وطربْ
رب بيضاء خلوب لحظها
ما لها في العجم شبه والعربْ
تحت ليل الفرع منها قمر
فوق غصن فوق حقف منكثبْ
يقبل الشوق إذا ما أقبلت
يدبر الصبر إذا ما تنقلبْ
بابليُّ السحر في أجفانها
بابلي الراح منها في الشنبْ
زرت والظلماء مرخى سدلها
غيبة الواشي وفقد المرتقبْ

رب تيهاء نزوح ماؤها
يَنْأم البوم بها كالمنتحبْ
وتضل الكدر في أرجائها
بالحسى الصفر عن افراخ زغبْ
جبت و الليل مغط قورها
بفتيٍّ ومراسيل نجبْ
وقريض بِتُّ أبني فغدا
مثل نظم الغيد تقصار الذهبْ
آخذاً من لحن أقحاح اللغى
مضغ القيصوم والشيح النخبْ
من لآلي حاضريهم أصطفي
ومن الأعراب رشاف العلبْ
ما تعاطى اللسن في أندائهم
وتعاطوه بأفواه القلبْ
وأداروه عصوراً بينهم
لابتناء الفخر أيام الغلبْ
إن خير الزاد يا صاحي التقى
فبه المجد التمس لا بالنسبْ
جرِّع النفس على تحصيله
مضضَ المرَّين ذُلاًّ وسغبْ

ودع الـمـال إلـى تـطلابـه

تكتسبه فلنعم المكتسبْ

هو حلي المرء في أقرانه

وهو عند الموت زحزاح الكربْ

وهو نور المرء في اللحد وإذ

ينسل الأقوام من كل حدبْ

يا غريباً يطلب العلم اصطبرْ

إن مبدا العلم من قبل غربْ

ما سعى في الربح ساعٍ سعيكم

بل سواكم سعيه جد نصبْ

إن تقولوا مَنَعَتْنا درسَه

أزمُ الدهر وَالاعوام الشهبْ

قلت هل يحتال في دفع العصى

من أظلّته الحسامات القضبْ

فكأني بذوي العلم غدوا

في نعيم وحبور وطربْ

يحمدون الله أنْ عنهم جلا

كل حَزْنٍ وعناءٍ وتَعَبْ

بادروا العلم بداراً قبل أن

يبغت الحين بهول وشغبْ

صاحِ ، لا تلف بجهل راضياً

فذوو الجهل كأمثال الخشبْ

واصحب الدائبَ في استنباطه

لا جهول خدن لهو ولعبْ

إنما القنية علم نافع

لا العتاق الجرد والخور الصهبْ

لا يزهِّدك أخي في العلم أن

غمر الجهَّالُ أربابَ الأدبْ

زبد البحر تراه رابيا

واللآلي الغرُّ في القعر رسبْ

لا تسؤ بالعلم ظناً يا فتى

إن سوء الظن بالعلم عَطَبْ

إن تر العالم نضواً مرملا

صفر كف لم يساعده سببْ

وترى الجاهل قد حاز الغنى

محرز المأمول من كل أربْ

قد تجوع الأُسْد في آجامها

والذئاب الغبس تعتام القتبْ

رأت الدنيا خبيثاً مثلها

لم تمالك أن أتته تنسلبْ

فحَبَتْـهُ الحُـبَّ منهـا خالصــاً
وكـذاك الشكلُ للشكلِ محبْ
ورأت ذا العلم فَــوَّاحَ الشذا
آبـي الــذامِ فـآلـتْ تصطحبْ
فـقَـلَـتْـهُ وقَــلاَهــا يــا لـه
قمـرٌ عنـه قـد انجـابَ الحجبْ
فغنى ذي الجهل فاعلم فتنةٌ
وافتقارُ الحَبْرِ تأسيسُ الرّتَبْ
فخذ النُّصْـحَ ولا تَـعْـبأ بمن
بـذل النصـح فطاوِعْـهُ تُصِـبْ
أضيع الأشـياء: حكـمٌ بالـغٌ
بيـن صُـمٍّ ، ونــداءٌ لـم يجـبْ
ولـو ارسـلت عـنـاني فـي مدى
مـا بـدا لـي مـن أسـاليب العربْ
ومــن الـحـثِّ لأربــاب الـنُّهى
لقريـت الأذن منهـا بالعَجَـبْ
لـكن الـشـعـر انقضَـتْ أيَّـامُـهُ
لا تــرى الـيـوم إلـيـه منتـدبْ
غـيـر راوٍ خـافضٍ مـرفـوعَـهُ
ناصـبٍ مخفوضَـهُ أو ما انتصـبْ

ونـــزوح الـفـهـم عـن مـيـزانـه

ليس يـدري كاملاً من مُقْتَضَبْ

ولست آمن سقوط بيت أو أكثر من خلال ما ذكرت منها،أو أن أكون عكست ترتيب بعضها.

وصارت لي مَلَكَةٌ في الشعر في الجملة، إلا أن قريحتي في نقده ومعرفة حسنه من رديئه أحسن منهما في إنشائه؛ ولذلك لم أكثر منه؛ لأن الذي تسمح به قريحتي لا يرضيني من كل وجه، وما ليس بِمُرضٍ لا ينبغي الإكثار منه، وربما قلت مع ذلك بعض الأبيات أو القطعة أو القصيدة إذا اقتضى الحال ذلك، ولم أزل منذ بلغت عازماً على التغرّب لطلب العلم في الأمصار، وذاكرت في ذلك بعض من لهم معرفة فلم يُشِرْ عليَّ بذلك، وقال لي: اطلب العلم في قبيلتك أو في القبائل المجاورة لهم، ولا تبعد فإن بلادك هذه على علّاتها هي اليوم أحسن البلدان، قال: وكثير من أحوال أمصار المغرب اختلف عما كان عليه سابقاً، وسمى لي أناساً من علمائهم توفّوا، وقال: إن العلم بعدهم في تلك الأمصار ضعُف،

فثبّطني ذلك برهة من الزمن إلى أن حان الوقت الذي أراد الله تعالى فأزمعت السفر أول سنة ١٣١٨هـ، فدخلت بعض مدن المغرب، كالصويرة ومراكش والدار البيضاء ورباط الفتح وطنجة، ولم أمكث في شيء منها إلا مراكش فإني أقمت فيها أشهراً ولم يحصل لي اختلاط بأحد من علمائها وإنما كنت أخالط أناساً من أهل بلادنا وفيهم علماء، إلا أني لم أشتغل عليهم بالعلم اشتغالاً يذكر لأني ما أزمعت الإقامة وإنما صارت إقامتي من غير قصد، ومن سوء حظي أني لم يتقدم لي قبل ذلك مطالعة شيء من الرحل يهديني إلى ما يلزمني في رحلتي، فلم أقيّد شيئاً مما رأيت أو سمعت، ولذلك ذهبت رحلتي سدىً، وكاتبت الشيخ ماء العينين الشنقيطي الحوض (المتوفى سنة ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م) من مراكش وكتبت له قصيدة مدحته بها، وفيها:

أفي ثنائي عن إطالَتيَ الثَّنا
ومُورِّثي عن مدحِكَ التَّقصيرا
إني إذا حاولتُ مدحاً لم أُطِقْ
عن بعض ما حاولتُه التعبيرا

يا مَنْ لَو انَّ جريرَ أصبح رائعاً
من مدْحِه المِعْشارَ فاتَ جريرا
منِّي إليك تحيَّةٌ لو شَمَّها
عُرْبُ العَذارى ما استطَبْنَ عبيرا

ومنها ـ وكان يعجب بعض تلامذته ـ :

وحباك بالنصر الإله بالهدى
وكفى بربك هادياً ونصيرا

ثم إنه قدم مراكش وأنا فيها، فاجتمعت به وأنشدته قصائد مدحته بها أيضاً، منها ميمية أولها:

باسم اللّه أبدأ في رقمي
فالرحمن ثمة بالرحيمِ
على مولاي أثني مستعيذا
به من كل شيطان رجيمِ
وخير محبة وسلام صدق
على المختار ذي الخلق العظيمِ
فلست ببادئ (بدقي) تحلت
مناحرهنَّ بالدرِّ النَّظيمِ

لـكـل خـريـدة مـنـهـنَّ عينا
طـلا مكحولتـان وجيـد ريـمِ
ولا بمـجـاز بـيـد لـيـس يلفي
بـهـنّ سـوى مـهـاةٍ أو ظليـمِ
ولا نـبـدا الـرسـوم ولا باجرا
دمـوع الصـب بـاليـة الـرسـوم

ومنها بائية أولها:

زارته مخلاف وعد الحب مخلا به
والفجر منصدع في الأفق كذابه
فظل في غمرات الشوق ذا غرق
وابتلَّ من عبرات الدمع جلبابه
فاســتمهلته فاغرته سـلاتهم
عتـابه وجي باللـوم عتـابه

ومنها:

تذكر اليوم من أيامه القدما
ما ليس ترجعه بالندب ندابه
أيـام إذ لم يـرعـه مـن أحبته
بين ولا من غراب البين متعابه
تلهيـه مـن فتيـات الحـي آونـة
أترابـه ومـن الفتيـان ترابـه

والشمل مجتمع والبين منقطع

والدهر في سنة مغلولة نابه

يا قلب صبراً فذا دهر تقلبه

جم فلا يزه منه الحلم تقلابه

ليست بثابتة الأطناب خيمته

ولا بثابتة الأوتاد أطنابه

واعترض علي عبدالله بن الأديب اليعقوبي من تلامذة الشيخ بأن الشعراء لا يستعملون الالتفات في المطالع إلا بضمير الخطاب.

نحو:

طما به قلبٌ في الحسان طروبُ

ونحو:

تطاول لذلك بالأثمد

فقلت له: لعل ذلك أغلبي، وأما كونه لا يكون إلا كذلك فلا أسلّمه إلا بنصّ من كلام أهل الفن، وقلت له: مع أني الآن لا أستحضر في شعر نصحاء المتقدمين إلا مثل الذي ذكرت، ولكني أعرف استعماله بضمير الغيبة في شعر أناس من أهل الصنعة والخبرة ينشدونه وينشد

بحضرتهم، ولم يعترضوا عليه بشيء، من ذلك قول بعض شعراء قبيلتنا المتقدمين، وأظنه غالياً البنعريَّ في لاميّة له مشهورة، أولها:

ما باله كلما لامته عذاله
يزيد في طفحات الجهل ما باله

ومنه قول ابن بدي العلوي في قصيدة له مشهورة، أولها:

ردته بعد تمام الحلم والنبه
إحدى الجواري رهين الشوق والوله
إن امرؤ سَفِهَتْهُ بعد كبرته
بناتُ عشرٍ لمعذورٌ على السفه

فقنع مني بذلك.

واجتمعت في مراكش بالشاب الظريف محمد النشني مرةً، وكان من تلامذة الشيخ ماء العينين يلقبونه البسيطي؛ لأنه ما كان ينظم الشعر إلا في (البحر) البسيط خاصة، قال لي: (ما الرأي عندك في فتى تباعد عن أوطانه لما كان ليس فيه فتى).

فأجبته بديهةً بقولي:

ما الرأي عندي له غير الرجوع إلى
بـلاده وإلى مـن حيث جـاء أتـى
ولا يكن لسوى الرُّجْعَى وإنْ ظفرت
يــداه بـالـفـوز بـالمطـلـوب ملتفتا

والبيت الأخير مقتبس من قول طرفة بن العبد:

وليس امرؤ أفنى الشباب مجاوراً
ســوى حـيّــه إلا كـآخــر هالك

واجتمعت بأناس من أفاضل تلامذة الشيخ، فيهم الشيخ أحمد الشمس، القاطن الآن بالمدينة المنورة، ومنهم الهيبة بن الشيخ ماء العينين، وحصل لي معه مجلس طويل يسألني عن قبيلتي ويستنشدني أشعارهم، وكنت حديث عهد بالبلاد، أحفظ جملة شعر شعراء تلك الناحية، ولا سيما الذين هم من قبيلتنا، فمما أنشدته نونية محمد بن حنبل، التي أولها:

عجبي على دمن النقا فمغاني
نهـى الغضــاة فمرقب الصــيران

فأخى الرعود فملتقى عراضـها
فالدوبـة البيضـاء فالسـندان
حلّ السماك بها العزالى بعدنا
والنجـم والجـوزاء والسـرطان
وحدَت بها نكبُ الرياح وقومها
بـعد البـلى عـثـنون كـلّ عثان
ما كدت لولا النؤي أعرف رسمها
ومـعـارف العرصات والقيعان
لَعِبَـتْ بهـا أيـدي البلـى إلا كما
يعلـو متـون مصـاحف الرهبـان
ونضّـا الزمـان حليّها مـن بعد ما
كانـت كأحسـن ما تـرى العينان
إذ جادها الوسميّ جوداً مبكراً
فجـلا وجـوه النجـد والغيطان
وأتـى الـولـيّ خلافه متواتراً
فجلا وجـوه الروض والغدران
والربع محفوف الجوانب كلّها
بـمـلاعـب الفـتـيات والفـتـيان
بـلـدانـه زهـيـت بنضرة أهلها
وزهـوهـم بـنـضـارة الـبـلـدان

وترنمت ولدانها كطيورها
وطيورها كترنم الولدان
وتأودت نسوانها كغصونها
وغصونها كتأود النسوان
وتضاحكت أسنانها كرياضها
ورياضها كتضاحك الأسنان
وتأرجت أردانُها كنسيمها
ونسيمها كتأرج الأردان
والدوم قد بلغ العنان فروعه
ضافي الظلال يميد كالنشوان
فظلاله لشبابنا متنزّهٌ
وفروعه للطير والغلمان
والأرض مترعةٌ زلالاً باردا
تحنو عليه نواعم الأغصان
وتزوره نسم الجنوب لواعبا
فتميط عنه ملابس الأدران
لا يعتريه سوى صوادح جعدةٍ
بُحر البطون ضعيفة الأبدان
مغمورة (إلا شقاشق) هدرها
يقري المسامع أحسن الألحان

تلك المنازل لا منازل مثلها

إلا جناب الشيخ للجيران

وهي طويلة يمدح بها شيخه الشيخ سيديا الكبير، وكذلك أنشدته مقصورته التي أولها:

زارتك إذ زار الجفون كراها

من بعد ما ملَّ المطي سراها

في جوز مجهول تلفّع ليله

طمس النجوم عجاجها ودجاها

باتت تجوب وما السرى من دينها

تيهاً تضل عن الفراخ قطاها

حتى ألمت والنجوم غوارب

بصوارم نكث النعاس قواها

متوسدين يدي عيسٍ رُزّح

طوت الفلا بذميلها وطواها

غاصت بهم في هول كل متيهة

موزونة وهدانها وربـاها

لم يؤنسوا إلا السراب نهارها

وبليلها إلا نئيم صداها

عجباً لمسراها وكان يعوقها
عن بيت جارتها القريب وناها
وإذا تعالج نوءة ناءت لها
علجانة من عالج أخراها
نفسي الفداء لرشفة جادتْ بها
من بعد بخل من سلاف ظماها
ولنظرة نظرت إليَّ كما خلت
بين الخمائل ظبية بطلاها
ولزورة نعشت حشاشة مهجتي
من بعد ما حطم الغرام حشاها
ولفرحة أهدت لنا بقدومها
بعد الصدود وبعد طول نواها
فرح البلاد إلى الأمير وقد جلا
أعناق صبح قدومه ظلماها

وهي طويلة، يمدح بها الأمير سيد بن لحبيب التروزي، وأنشدته غيرها من شعره أيضاً، وأنشدته جملة من قصائد، كالداليّة التي أولها:

هذي مغانٍ حوت وعداً وذا بلَدُ
كانت تحلّيه أيّام الصبا دعدُ

فقِفْ وسلِّمْ وسائِلْ وابْكِها كمداً
إن كان منكر ما في طرفك الكمد

واقلب مجنّك فيها غير مكترث
خلا يلومك أحياناً وينتقد

لا لوم في فعل مجنون تأوّبهُ
قلب المجنّ بدورٍ ما بها أحد

أمست خلاء وأمسى شمل جيرتها
أيدي سباطال في تمديدها الأبد

إن يبل كرّ الجديدين الديار ففي
طيّ الجوانح منها أرسم جددُ

وهي طويلة، وأنشدته اللاميّة التي أولها:

حي ربعاً بالتوأمين أحالا
بعد إحيائه دهوراً طوالا

ألبسته الرياح برداً عفاءً
ورداءً من البلا أسمالا

طار عقلي بين المعاهد نضوى
ووقوفي حتى استلّ العقالا

وهي طويلة، وأنشدته غير ذلك، وقال لي: من أشعر

عندكم: الأحول أم ابن حنبل؟ فقلت له: إن محمد بن حنبل نقل عن شيخه سيديا أنه فضّل شعره على شعر الأحول في محفل، ونظم ذلك بقوله:

لا أبـالـي بـمـن يـذم قريضي
من ذكـي الحجا ومـن عريضي
وعلـى الأحـول البليـغ المجلي
في الملا فضـل الكمال قريضـي

فقال: الهيبة على وجه المزح؛ ذلك لأنه يكثر مدحه، فضحك الحاضرون، ثم استنشدني شعر المختار بن المعلّى، فأنشدته جملة من شعره كاللامية التي أولها:

ألـمّـا علـى دور بـعـمـار مـن جمل
وأخرى لدى الوادي إلى جانب الرمل
فـلا بـدويـات بـهـن سـوى الظبـا
ولا من قـرى فيهنَّ إلا قـرى النمل
عفتهنَّ أيـدي الـدهـر بعد وإنّـما
يـد الدهـر خرقا مـا تجد كمـا تبلي
ومنها عمدت إلـى عريانة داعرية
مـداخـلـة قـتـلاء مـن أنْـيـق فُتـل

سديس رمى نسج المشافر ظهرها
باعرف ينبو بالرسوم وبالنازح الغفل
شفاء لتذكار المحبين
وللنازح الموسوم والنازح الغفل

وأنشدته التي أولها:

أما درة عينيك من جانب النقا
دوارس أطلال يضاهين معرقا
قضى الله أني كلما لاح منزل
لعيني من لبنى وإن كان اخلقا
ترامت بنات الشوق مني بزفرة
تكاد لها الأضلاع أن تتفرقا
على أنني لم أخش في ذاك هفوة
إذا صبح قلبي بالكمان مشوقا

وهي طويلة، وأنشدته أيضاً بمدح الشيخ سيديا بن محمد بن الشيخ سيديا الكبير:

دعي عنك الملامة لا تلومي
فما أنا بالمليم ولا الملوم
أراني كلما راقبت نجماً
تبدَّد لي كناظرة المديم

على أثر الأولى سهروا وباتو
لفرط العشق في رعي النجوم
جعلت من الشفاه تعاتبيني
كأني قد حطمت قرص الحطيم
ومشتبه تضل الكدر فيه
عن الأفراح جوال الأروم
إذا ما رد في رقشاء عجا
تزلزلت الجفون من الهزيم
وماء آجن الثملات عافٍ
قليل الأذى منه فن قديم
عثرت على مدافنه بليل
تدلى من جوانبه بهيم
ولكن رب قافية رفعنا
لآل الشيخ كالدر النظيم
لدى آل الكمال أنخت نضوي
فما نوخت بالمرعى الوخيم
ولم أنزل على شوك الكوادي
ولا الصوان والماء المديم
ولكني نزلت على رياض
من السعدان مترعة جديم

بـهـا الـذبـان عـاكـفـة تغني
بـكـا لـمـزمـار تـؤذن بالنعيم
يـلاطـفـهـا الـنـسـيـم بـبـاردات
لـواغـب لَـسْـنَ بـالـريـح العقيم
ولا والله لـم أنـزل بـعـلٍّ
عبوس الحاجبين ولا سـؤوم
ولـكـنـي نـزلـت بـذي مـزايـا
منيـع الجـار محتـرم الحريـم
أغـاث بـه الإلـه هـذه البرايا
فـكـان لـهـا كـدرات الـغـيـوم
أضـاء لـهـا ديـاجـي مظلمات
عتـون علـى الغزالـة والجليـم

وقد تقدم أنه قال لي: كيف ترون درجته في الشعر؟، وما أجبته به وما قال لي بعد ذلك، والهيبة هذا هو الذي بايعه أهل مراكش وما حولها سلطاناً لهم منذ سبع سنين أو نحوها لما اختلّ ملكهم وخُطب له على المنابر، وكان هو بنفسه يباشر الخطبة والصلاة بالناس بعدما بويع في مدينة مراكش وما حولها بسبب خيانة جملة من قواد استمالتهم دولة فرنسا بالدراهم، وانحاز الهيبة ومن

معه إلى جهة سوس، وهو الآن فيها وتتبعه أمم كثيرة وتجري بينه وبين فرنسا وشاة، نسأل اللّه تعالى أن يقيه من شرهم.

ولم أزل مذ بلغت عازماً على التغرّب في طلب العلم في الأمصار إلى أن حان الوقت الذي أراده اللّه تعالى، فأزمعت السفر في أول سنة ١٣١٨هـ. فدخلت مدن المغرب، كالصويرة ومراكش والدار البيضاء ورباط الفتح وطنجة، ولم أمكث في أي منها إلا مراكش فإني أقمت فيها أشهراً، ولم يحصل لي اختلاط بأحد علمائها، وإنما كنت أخالط أناساً من أهل بلدنا وفيهم علماء إلا أني لم أشتغل عليهم بالعلم اشتغالاً يذكر ولم أقيّد شيئاً من رحلتي، ومما رأيت وسمعت، ولذلك ذهبت رحلتي سُدىً.

وكنت أولاً قاصداً مدينة فاس؛ لأنها مدينة العلم في المغرب الأقصى، ثم بدا لي أن أحج فأصابني الجدري في رمضان وأنا في رباط الفتح، وتأخّر بُرْئي لبرودة الوقت والقطر، فعاقني ذلك عن الحج تلك السنة، ثم سافرت من المغرب إلى مصر، فدخلتها في ذي الحجة سنة

١٣١٨هـ وفيها الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي اللغوي المشهور، وكان معي رجلان شنقيطيان، وليس منا من له معرفة بالشيخ، فعلم بنا أول يوم، فجاء إلى الأزهر يسأل عنا فاجتمعنا به، وسألنا من نحن فانتسبنا له، فأخذنا فذهب بنا إلى الشيخ محمد عبده (مفتي الديارِ المصرية المتوفى عام ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م)، وكان صديقاً له، وهو في مؤخر الجامع، فعرّفنا به فسلمنا عليه، ثم ذهب بنا إلى بيته وجلسنا معه مدة حتى العشاء فتعشينا، ورجعنا إلى الأزهر، ولم يزل يتعاهدنا بالاستدعاء إلى بيته للطعام ويرسل معنا من يرشدنا إلى ما نريده من حمام أو غيره، وأكرمنا غاية الإكرام، وكان يقدمني على صاحبيّ مع كونهما أسنّ مني، ويجلّني أكثر مما أستحق، حتى إن أحد صاحبيَّ عيل صبره من ذلك، فقال للشيخ ما معناه إننا ما كنا نأمل منك أن تفضل علينا غلاماً لم ينبت شعر وجهه، وقد خطّنا الشيب، وأكثر على الشيخ من الكلام الذي لا فائدة فيه، وأجابه الشيخ أيضاً بكلام كثير مضمونه أن التقديم ليس هو بالسن، وإنما هو بالفضل والعلم، وكل مجالسنا معه مجالس علم وأدب

وفائدة، إلا أنني ويا للأسف لم أقيّد شيئاً من ذلك.

وحين جئته كنت مقلّداً محضاً، وكان هو يرى العمل بالحديث، فحانت يوماً صلاة ونحن في بيته، فصلى بنا صلاةً مخالفة لصلاة المالكية في بعض الهيئات، وكنت سمعت أن أكثر علماء مصر يتركون مذاهبهم لمذهب أبي حنيفة لأجل التوظّف.

فلما سلمنا قلت له: كأنك تركت مذهبك لمذهب أبي حنيفة أو الشافعي؟، فقال: كيف عرفت ذلك؟ قلت: لأنك فعلت كذا، قال: وهذا لا يفعله إلا حنفي أو شافعي، فعلي أنا أن أفعل كل ما ثبت عندي من رسول الله ﷺ فعله، فقلت له: إني سألت بعض علمائنا عما إذا وجدت حديثاً مخالفاً لما أعرفه من أقوال الفقهاء، وكيف أصنع وأنه قال لي: اعمل بقول الفقهاء.

فقال: هذا لا يقوله عالم، لا يقوله إلا جاهل، فكبرت كلمته في نفسي لما وقر في نفسي من تعظيم ذلك الرجل الذي قال لي ذلك، ثم قال إني أتعجب من المالكية في تركهم وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، مع أن

أصحاب مالك كافة رووه عنه، قلت فمن رواه عنه؟، قال كل من روى عنه الموطّأ رواه عنه، قال وأخذ برواية ابن القاسم وحده في السدل، قلت ذلك لأنه أفضلهم، قال وليس بأفضلهم، محمد بن إدريس يعني الشافعي أفضل منه، قلت له ذلك مجتهد، قال وإن كان.

هذا الشيخ حادُّ المزاج حارُّ الطبع، كثير الاعتراض والانتقاد على العلماء، إلا أنه كان غزير المادة، يغرف من جم غرائب يشذ بها عن الجمهور وأشهرها مسألة صرف عمر، فإنه كان يصرفه، ويرد على القارئ إذا لم يصرفه، ويقول إنه ليس مانع من العلمية فيه، وأن العدل المزعوم فيه لا دليل عليه، ويستند على صرفه بأبيات شعر كثيرة ورد فيها مصروفاً، وقد ردَّ عليه صاحبنا الشيخ أحمد بن الأمين العلوي الشنقيطي (المتوفى عام ١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م) وصَنَّف في ذلك رسالتين صغيرة وكبيرة وأجاد فيهما، ومن جملة ما رد عليه به أن كتب الحديث مع كثرتها وتناقل الأمة إياها بالتواتر لا يمكن إحصاء ما في أسانيدها ومتونها من ذكر عمر وابن عمر، وأن

الرواة يجمعون على روايته ممنوعاً من الصرف، وليس ثمة ضرورة وإثم لو لم يكن إلا كونه مسموعاً عن العرب، هكذا كان الواجب المصير إليه وإن لم تظهر له علة، فضلاً من كون النحاة عللوا منعه ووجهوه بما ظهر لهم وأجمعوا عليه، وإن من خالف أحد هذين الإجماعين لا يلتفت إليه فضلاً عمن خالفهما معاً، ومما سمعته يقوله في هذه المسألة غلط فيها سيبويه إمام البصريين والكسائي إمام الكوفيين، وتبعهما أناس على ذلك، فقلت له تنبه أحد العلماء لهذا الغلط؟ فقال نعم، قلت من هو؟ قال محمد محمود يعني نفسه، وكان يحفظ من أغلاط العلماء شيئاً كثيراً، وودِدت أني كنت قيّدت بعده، لأن الكثير منه مفيد، وسمعت منه أشياء كثيرة وفوائد غزيرة أحفظها في الحال ولا أقيّدها اعتماداً على حفظي، والحفظ خوّان، فانفلتت مني كلها.

قال لي ثاني يوم: ابن عمك عبدالله بن أحمد دام ذهب يغلّط العلماء فغلط هو، قلت في أي شيء؟ قال في قوله:

هي العرب تأتي أوجهًا في كلامها

يفوت مدى ميدانها كل قاصر

هي العرب تأتي أوجهًا في كلامها

يتيه بها بعض النحاة الأكابر

لذلك أمسى بعض أحبار معشري

يقولون «ماذا» لا ترى في الأواخر

وألفٌ لماذا في النوادر كررت

وهل تجهل الأشياخ ما في النوادر

فقلت له ما وجه الغلط؟ قال: في تسميته الكتاب النوادر، وإنما هو الأمالي، قلت له: أنا بلغني أنه يعني نوادر محمد بن أبي زيد القيرواني، فقال لي: هذا غير صحيح، لأن نوادر أبي زيد لا وجود لها في القبلة، والقصة موجودة في أمالي أبي علي القالي، وأهل القبلة يسمونها النوادر، وهو غلط منهم وتبعهم هو على ذلك، وما كان ينبغي له لأن من مثله ينبغي له التحرّز من الغلط مطلقاً، ولا سيما في معرض تغليط العلماء، فقلت له عدم وجود نوادر ابن أبي زيد في القبلة غير معلوم، وكون القصة في الأمالي لا ينافي وجودها في النوادر، ولم يرتض كلامي.

قلت والسبب الذي قيلت فيه هذه الأبيات أنه وقعت فتنة بين أناس من قبيلتنا وأناس من قبيلة أخرى أظنها ذوي بسات، وكان رئيس قبيلتنا إذ ذاك ابن حظيرة، وكان رجلاً فاضلاً، يحب السلم ويكره الشر، فركب إلى البساتين ليلاً في الأمر قبل أن يتفاقم الشر بينهم، فوجدهم متعصبين يحبون الحرب، فلم يزل معهم حتى صالحهم على ديات التزمها لهم، وكبر ذلك على أناس من القبيلة، منهم عبدالله بن الخصوب أم هذا، فجعل يقول أيا شيخنا إلى آخره.. فاعترض عليه بعض العلماء بأن ماذا استفهام والاستفهام له صدر الكلام فكيف جعله في الآخر؟ فقال الأبيات المتقدمة، ولم يزل لابن حظيرة ويقول فيه الأشعار، كقوله في أبيات كما قال يخاطبه: ماذا حملت رعاك الله ما لا تطيقه وهل حملت ينزل قبلك هذا:

مضوا يسقطون المد ثم تحمّلوا
به عُكّةٌ إذ يحضرون جذاذا
فذي دية من غير عقلٍ ولا دمٍ
وتان قضاء واثنتان لماذا

ويقول فيه الأشعار كقوله:

وإني زعيم إن وقيت بهذه

بنأي عن الأوطان ما أمكن البعد

ثم إنه جلا عن الوطن ودخل بلاد السودان وتزوج منهم، وولد له أولاد هناك، وجرت عليه محن، وله أشعار كثيرة في تلك الغربة ورجع إلى الوطن بعد موت ابن حظيرة وأتى بأولاده، والقصة التي أشار إليها في الأبيات الأولى، وأما التي أشار إليها في الأبيات الأخيرة فإن يترك طائفة من سقط الناس يباشرون إصلاح النخل أشبه شيءٍ بنخاولة المدينة، وكان لابن عبد أمير شنقيط عليهم ضريبة مدّ تمر يأخذه كل سنة، إلا أني لا أعلم هل كان يأخذه على الرؤوس أو على النخل أو غير ذلك، واقتضى نظرهم مرة أن يبعثوا إليه أناساً منهم يلتمسون منه إسقاطه عنهم فصادفوه على حالة تكليمه فيها غير مناسب وكانوا أغبياء، فلما جلسوا نظر إليهم نظر مغضب وكان مهيباً، وقال ما الخبر فأرعدت فرائصهم وأخذ منهم الرعب مأخذه، فقالوا خيراً جئناك نخبرك

أن المدّ الذي كنا ندفع لكم ندفع بدله أو قالوا معه عكة، والعكة جراب محشو تمراً معجوناً من قبيل العبيط عند أهل نجد،إلا أن فيه نواة، فقال قبلنا وانصرفوا، واعتراض عبدالله بن أحمد دام على ابن حظيرة كان في أول أمره قبل أن يجرب الزعامة، ولذلك لما أفضت الأمور إليه وإلى إضرابه صار يحتمل في إصلاح ذات البين حمالات لا مناص له منها، كما يدل عليه قوله:

ما لوم هذي حمي الأنف في جلل
أمسى تأمله في حادث عظما
لو شاهدته لدى حيٍّ تقسّمه
هترث الأصحة نهباً بينهم زيما
لأيقنت أن من باتت تعاتبه
من معشر لم يكونوا معشرًا لؤما

رجعنا إلى خبر التركزي، قال لي هل تحفظ لوحية ابن عمك شاعر الدنيا هذا لفظه محمد بن حنبل؟ قلت: نعم، قال أسمعنيها فأنشدته إياها، فلما بلغت قوله:

في عقود النضار والدر منها
جيد جيداء من ظباء رماح

قال لي أعد علي هذا البيت فأعدته، فقال لي ما تقول في هذا البيت؟، قلت وماذا عسى أن أقول غير أن فيه غلطاً، قلت ما هو، قال نسبة الظباء إلى الرماح، ورماح إنما تنسب إليه المها، قال الشاعر (ذو الرمّة):

وفي الأظعان شبه مها رماح

علته الشمس فادّرع الظلالا

وذكر بيتاً أظنه لذي الرمّة، وقال وأما الظباء فإنها تنسب إلى وجرة، وإلى كذا موضع سماه ونسيته، فقلت له نسبة المها إلى رماح لا تمنع نسبة الظباء إليه، كما أن نسبة الظباء إلى وجرة وكذا موضع لا تمنع نسبة المها إليها، فقال هذا ليس بشيء فإن العرب هكذا قالت، ولا يترك ثابت النقل لتجويز العقل، فلحقتني العصبية من كثرة اعتراضه على شعرائنا وخالطني غضب، وأحمد اللّه أني ملكت نفسي فلم يظهر علي شيء.

ثم ذكر بيتاً لمحمد بن سالم المتقدم الذكر، ما كنت سمعت به قبل ذلك، وزعم أن فيه غلطاً ومعنى ما اعتراني من الانحراف من حفظ البيت ومعرفة وجه الغلط منه

فلم أبحث معه فيه، وإنما قلت إني لا أعرفه، وقال لي مرة أي شعرائكم الذي يقول:

نبي كليم الله موسى وروحه
أقر له بالفضل إقرار آدما
فإن لم تكن لي خيمة حول رسمه
فهذا هواه في فؤادي خيَّما؟

قلت: هو ابن عبد الرحمن البنعمري، قال تحفظ القصيدة التي منها هذان البيتان؟ قلت أحفظ كثيراً منها، قال أسمعني ما تحفظ منها، فأنشدته كثيراً منها، أولها:

أعَيْنَيَّ وَجْداً تُهْرِقانِ مَعاً دَمَا
نَجيعاً حَكَى لَوْناً عَلى الْخَدِّ عَنْدَماَ
وَهَذا أنَا وَالصَّدَّ يَرْشَحُ بالَّذي
بِهِ فَتَبدَّى كَوْنُهُ (مُتْرَعاً دَمَا)
وَكَوْني فتى أمْسى جَريحاً فُؤادُهُ
بأسْهُم حُبِّ دَامَ دَهْراً فَدَمْدَماَ
وكنت على ركن من الصبر ثابتاً
فصادفَهُ طودُ الهوى فتهدَّما
فقلت وليل الهم قد كان سرمدا
ألم يأن للإصباح أن يتقدما

وهي طويلة وآخرها، ويقال إن من أحسن ما ختم به:

لك السبق فضلاً والتأخر مولداً
فكنت لرسل الله بدءاً ومختماً

ثم قال هل تحفظ له غير هذه القصيدة؟ قلت أحفظ له قطعة واحدة، قال أسمعنيها، فأنشدته:

لكل اجتماع بعد نزهته فصل
وما كل بين بعد وحشته وصل
فتحت عيوني بين أمي ووالدي
هما بلغا سنَّيْهما وأنا طفل
فقام قليلاً هكذا فترحلا
وما كان مما يُشتهى ذلك الرحل
فهذا أنا يدعوني بنِّي أباً له
كما كنت أدعو والدًا لي أبا قبل
وقد ذهب الأصل الذي أنا فرعه
وكيف بقاء الفرع إن ذهب الأصل

ثم قال: تحفظ مقصورة محمد بن حنبل التي عارض بها مقصورة أبي صفوان الأسدي؟ قلت نعم، قال أسمعنيها، فأنشدته إياها، وأولها:

أشاقتك بعد تولي الصبا
حمول بكرن بأدم الظبا

بدعج اللواحظ بيض الوجوه
ثقال المروط ثقال البرى

وهي طويلة، ويقال إنها من أجود شعره، فلما وصلت إلى قوله في صفة البحر:

كأن بعبريه سرّ الهجان
أنخت بأمعزَ جون الحصى

فتحت العين من عبريه، فقال لي قل عُبريه وضم العين، فقلت إنني كثيراً ما سمعت الرواة ينشدون قول النابغة الذبياني:

فما الفرات إذا هب الرياح له
ترمي أواذيّه العبرين بالزبد

بفتح العين، فالتفت مسرعاً وتناول كتاباً إلى جنبه لعله القاموس، ونظر فيه ملياً ثم أطبقه وقال ذهب وهلي إلى قولهم ناقة عبر أسفار ونعم العين، فقلت له ذلك مثلث، قال وهو مثلث، ثم أتممت القصيدة فناولني

كاغدة (٢٣) ودواة وقلماً وقال انسخها لي فنسختها له، ومقصورة أبي صفوان التي أشار إليها قصيدة طويلة وذكرها القالي في أماليه وشرحها، أولها:

نأت دار ليلى فشط المزار
فعيناك ما تطعمان الكرى
ومر بفرقتها بارح
وصدق ذاك غراب النوى

وقال لي يوماً وأظنه من أول من باحثني عنه: تحفظ لاميّة ابن عمك المختار بن المحمود؟ قلت: لا، تبسّم وقال ما مضمونه إنك لو شهدت عندي أو قال عند سوار لما قبلت شهادتك، وقال هذا شاعر من أشعر شعراء قبيلتك، والقصيدة من أشعر شعره ولا تحفظها، وذكر قصة سوار مع الدارمي الذي دخل عليه وهو ينشد شعر الأسود بن يعفر، ثم شرع أحد صاحبيّ يذكر طرفاً من القصيدة ويغلط، وأنا أرد عليه ثم أنشدت أبياتاً من أولها، وهي:

أبانتهم أبينت من جمال
وحاد بها الحداة إلى الضلال
جمال غادرت هضب الحبارى
قبيل الصبح مسلوب الجمال

سلكن السيل لا متريثات
حذارا من معالجة الرمال
وقد جعلت تدير السيل عنها
يميناً والنفود إلى الشمال
وكان لهنّ ريع الرعي أمّا
فأنجاد المُعَكّنَة العوالي

فجعل يلحظني كالمتعجب، وقال قلت إنك لا تعرفها ! فقلت له إنما سألتني هل أحفظها وأنا لا أحفظ منها إلا أبياتاً قليلة، وهي طويلة، ولو سألتني هل أعرفها لقلت نعم، فسكت.

والقصة التي ذكر عن سوار ذكرها الحموي في معجم البلدان عن الأصمعي أنه قال: تقدم رجل من بني دارم إلى القاضي سرار بن عبدالله ليقيم عنده شهادة، فصادفه يمتثل ويقول الأسود بن يعفور، وهي هذه الأبيات:

ولقد علمت لو ان علمي نافعي
أن السبيل سبيل ذي الأعواد
إن المنية والحتوف كلاهما
يوم المخارم يرقبان سوادي

مــاذا أؤمــل بـعـد آل محـرّق
تـركـوا مـنـازلـهـم وبـعـد إيـاد
أهـل الخورنق والسدير وبارق
والقصر ذي الشرفات من سنداد
نـزلـوا بـأنـقـرة يـنـيـل عليهم
ماء الفـرات يجيء من أطـواد
جرت الرياح على محل ديارهم
فـكـأنـمـا كـانـوا عـلـى ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة
في ظـل مـلـك ثـابـت الأوتــاد
فـإذا النعيم وكل ما يُلهى به
يـومـاً يـصـيـر إلى بـلـىً ونـفـاد

ثم أقبل على الدارمي، فقال له: تروى هذا الشعر؟ قال لا، قال أفتعرف قائله؟ قال: لا، قال هو رجل من قومك له هذه النباهة، يقول مثل هذه الحكم لا ترويها ولا تعرف قائلها يا مزاحم! وأثبت شهادته عندك فإني متوقف فيها حتى أسأل عنه فإني أظنه ضعيفاً، وانتهى كلام الحموي.

قلت: والقصة ظاهرة في أن سواراً كان يقنع من الدارمي بحفظ بعض هذا الشعر، بل كان يقنع منه بمعرفة قائله، وإن لم يكن حافظاً له وهذا القدر لو طلبه

مني الشيخ وجده عندي فجعله إياي والحالة هذه مثل هذا الدارمي بعيد عن الإنصاف، وسوار هذا هو ابن عبدالله بن قدامة التميمي العنبري، قاضي البصرة من كبار أتباع التابعين، صدوق محمود السيرة، تكلم فيه الثوري لدخوله في القضاء، مات سنة ١٥٦هـ، وله حفيد يقال له سوار بن عبدالله بن سوار قاضي الرصافة، من ثقات رجال الحديث، مات سنة ٢٤٥هـ، وله ثلاث وستون سنة، وليس هو المذكور في هذه القصة لأن الأصمعي الذي رواها مات سنة ٢١٦هـ وقد قارب التسعين، ولأن الجد اشتهر بالقضاء والحفيد اشتهر بالحديث، وقال لي مرة أتقرض الشعر هذا لفظه؟ فقلت ربما فعلت ذلك، قال فأسمعني من شعرك، فأنشدته قصيدة أولها:

توطّن مرباع الفتاة موافيه
فأبلى السوافي الربع غير أثافيه

وحل به الدلو العزالي تفثيري
سواريه ما لم تبل منه سوافيه

وقفت على المغنى وما فيه أهله
وفي القلب من حب الفتية ما فيه

سوى أنني قد كنت للحب مخفياً

ومنذ بدا المغنى تبدت خوافيه

وأنشدته أيضاً أول الرائية التي قلت في الشيخ ماء العينين، وأولها:

قد حمل الطيف الملم هجيرا

من ليس للحور الكواعب زيرا

من فرط حب فتية بالعقل ما

يعيا به لو حمّلته ثبيرا

فقال لي أين فاعل يعيي؟ قلت له فاعله ثبير، ولم أُحسن أن أقول ضمير، يعود على ثبير، فقال كيف يكون ذلك وهو منصوب؟ قلت له هو منصوب بجملته على أنه مفعول كان، لأنه متنازع فيه، فقال هذا لحسن، وكنت إذ ذاك لم أتقن باب التنازع، فلم تمكنني معارضته، غاية ما قلت له إني حضرت خالي يقرر هذا الباب وسمعته يمثل بأمثلة كهذا التركيب فلم يلتفت إلى ذلك، ثم استمررت في القصيدة، ولما وصلت إلى قولي:

يا قوم ما لكم إذا ما طاف بي

فعل الصبا كنتم عليَّ ظهيرا

ما لي تعاب عليَّ أفعال الصبا

أرايتم في مفرقي قتيرا

فتبسم وقال لا ما رأيناه (القتير: الشيب) ثم إني بعد ذلك تأملت باب التنازع فإذا كلامي مستقيم على مذهب الجمهور وكلام الشيخ إنما يتمشى على مذهب الفرّاء وحده، لعله كان يرى رأيه في هذه المسألة وهو بعيد، بل الظاهر أنها كانت غائبة عن ذهنه، إذ لو كانت له على بال وكان يرى رأي الفرَّاء لنسب اللحن إلى الجمهور وذلك شيء عليه يسير، وكان يعذرني أنا، وهذه المسألة التي هي نحو ضربني وضربت زيداً مذهب البصريين فيها أن في الفعل الأول ضميراً مستتراً هو الفاعل يعود على زيد وإن كان متاخراً، وهذا عندهم من المواضع التي يعود فيها الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، ومما استدلوا به قول الشاعر:

وكمتاً مدماةً كأنّ متونها

جرى فوقها واستشعرتْ لونَ مذهبِ

يروى بنصب لون، وقال جرى ضمير يعود على لون،

وأما الكسائي فقيل إنه موافق للبصريين، وقيل إنه يرى أن فاعل الفعل الأول واجب الحذف، وهذا هو المشهور عنه وكلامي مستقيم على هذين المذهبين، وأما الفرّاء فإنه يرى وجوب الإتيان بالضمير مؤخراً فيقال ضربني وضربت زيداً؛ لأنه لا يرى جواز الإضمار قبل الذكر كما يراه البصريون في مواضع منها، هذا ولا يرى جواز حذف الفاعل كما يراه الكسائي.

وقال لي مرة إني بعيد عهد بالبلاد، وقلّ أن يأتيني مثلك فأخبرني عن حال الناشئة التي نشأت به من قبيلتكم ومن غيرها، فقلت له أما قبيلتنا فلم يزل في ناشئتها النبوغ بالشعر، حتى إنه بلغني عن شيخنا عبدالله بن رحمين الكريمي ولم أسمعه منه أنه قال إن هذا القرن قرن الشعر، وقد جرت منذ ثلاث سنين مساجلة بين فتية من قبيلتنا بعضهم على سني وبعضهم أصغر وبعضهم أكبر، أنا أُسمعك بعضاً، وسببها أن رجالاً من فخذ منا يقال لهم آل، بموحدة مكسورة فلام مشددة فألف، واسم جدهم عبدالله لكنه اشتهر بهذا اللقب وسيأتي مسمى باسمه في الشعر،مع الإشارة إلى اشتقاق لقبه، جرى بينه

وبين غلمة أصغر منه كلام، ولعله أغلظ لهم الكلام، فقام غلام منهم اسمه حبيب الله بن مصطفى، من فخذ يقال لهم آل يعقوب، فعمل أبياتاً منها قوله:

أبلغ جماعتهم إن كنت لاقيها
أن الذي ذمّنا من غيرما سبب
لو كنت ترباً له أو كان لي كفؤاً
صيّرته كالحمار الفاقد الذنب

وكان هذا البلوي عاميّاً مفحماً لا يقول الشعر، وله ابن عم شاب شاعر اسمه حامد بن عبدالله، وهو سبط حامد البلوي المتقدم الذكر، فانتدب لمعارضة اليعقوبي، فأجابه بقطعة، أولها:

إلى الأفاضل من يعقوب خير أب
من كل آبي الخنا والضيم وابن أبي
تحيَّة لسجاياهم يُذمّ لها
إبريق مزجٍ من الكافور والعنب

وجرت بينهما أشعار على هذا الرويّ خرجا فيها عن جادة الأدب إلى جادة البذاء والسفه، ولا أحب أن أذكر شيئاً من ذلك، ثم قام عليهما الجماعة فأسكتوهما،

فتتاركا برهة، واتفق أن فتىً من بني آل يعقوب، وليس من أعيانهم تزوج فتاة من آل المعلى من أخيار بيوتات آل حمد، وآل حمد من أشرف أفخاذ القبيلة فتكلم بعض الناس في ذلك، وقال حامد البلوي هذا أبيات منها:

أبنـاء يعقوب غرّ سـادة هضـم
لله درهــم مـن سـادة هضم

وهي أطول من هذا، فأجابه ابن السيد اليعقوبي اليدي بقصيدة، أولها:

أنور بدر سرى في داجن الظلم
أم عقـد در بسـلك التبر منتظم
أم عرف إحدى رياض الحزن هيجها
أن آدهـا بعـد هـدءٍ ليّـنُ الرهم

وكان آل أحمد طلعهم مع آل يعقوب أيضاً ولذلك مدحهم أحمد بن حبيب الله ابن السيد اليعقوبي البدي بقصيدة أولها:

أعـراك وجـد بعـد بـين نـوار
مـن بـين دور مـن نـوار عـواري

وقد ذكرت أبياتاً من أولها فيما مضى، وفي هذه المدة

اجتمع شيخنا محمد بن بنيامين اليعقوبي بعبدالله والد حامد البلوي هذا، فسأله عن ولده وقال له إلى الآن يعمل الأشعار أو كلاماً نحو هذا، فعلم عبدالله أن في نفس الشيخ شيئاً على حامد من أجل ما يقوله في بني يعقوب؛ لأن الشيخ منهم، وكان الشيخ محترماً عند الخاص والعام، فألزم عبدالله ولده بالوصول إلى الشيخ لإرضائه وإزالة ما في نفسه وأن يترك المحاورة مع اليعقوبي بالكلية، ففعل ذلك حامد، وأنشد الشيخ قصيدة أولها:

أيها الغوث عند ضيق المساعي
يا تبوعاً عند انقضاء التباع
بائعاً نفسه ودنياه حرصاً
على الأخرى لله صاعاً بصاع
يألف الناس شخصه مع روح
عنهم ذات غيبة وانقطاع
تتوخى مراعي الخوف طوراً
وهي طوراً من الرجا في مراعي
باب أمر لولا الجنوح إليكم
كان منه جناته في ارتداع
فجعلت النجا إليك فكن لي
في بلوغ المنى إلى الله ساعي

وادعونـه ليكفنـي شـر فكـري

وكلامـي ومنظـري واسـتماعي

ومنها:

وليـقـطـع بـنـوره جـوع قلبي

إن قلبـي مـن القلـوب الجيـاع

يعتـك اليـوم لؤلـؤاً في جمـالي

فاضـمنوني لكـي يفـوز ابتياني

إن مـن بـاع لـؤلـؤاً لـرفيـع

لجـديـر بـجـائـزات الـرفـاع

وآخرها:

وعلى المصطفى شفيع البرايا

صـلواتٌ ليسـت بـذات انقطـاع

وكذلك منع اليوسفيون ولدهم عن التكلم، واليعقوبيون كذلك، وانتهت المسألة، بعد أن كادت توغر صدور الأفخاذ بعضهم على بعض، فقلت له هذا من أحدث ما جرى في قبيلتنا، وأما غير قبيلتي، فلم يحصل لي تجوّل في القبائل، ومن أقربهم إلينا بنو ديمان، وبينهم في هذه المدة الأخيرة.. مساجلة بلغني منها عارف، وذلك أن فيهم بطنين هما محل الرياسة وبينهما منافسة قديمة،

أحدهما آل فاضل والآخر آل باب أحمد، وفي آل فاضل رجل يقال له أبوبكر يقول الشعر، ويقال إنه ضعيف في النحو وهو متسلط على آل باب أحمد يهجوهم، ومما بلغني عنه أنه ضاف هو وناس معه رجلاً من آل باب أحمد وقدم لهم طعاماً حاراً، فقال أبوبكر في ذلك:

لم أنس والمرء قد ينسى ولا عار
والدهر فيه تصاريف وأقدار
فتى أَنَخْنَا به يوماً فأكرمنا
والحر من يكرم الأضياف إن زاروا

ثم ذكر أنه قدم لهم طعاماً حاراً، إلى أن قال:

لما مددنا لأكلٍ منه أيدينا
كادت لتأكلنا من دونه النار
إن الطعام إذا اشتدت حرارته
يكون منه مكان النفع أضرار

فلما بلغت أبياته آل باب أحمد وقرؤوها أشكلت عليهم حركة اللام من قوله (كادت لتأكلنا) ومعناها، فجعلوا يذكرون معاني اللام واحداً واحداً، ولم يجدوا معنى يناسبها، فقال لهم أحدهم أنا أخبركم عن هذه اللام،

هذه لام تعرفها العرب، ولم يضع لها النحاة اسماً، ولكن أنتم سمّوها لام الأكل، وحرّكوها بما شئتم، فصار بعض المزّاحين من طلبته إذا شرع يقرر معاني اللام يقول تأتي لكل معنى، ويزيد على ما في كتب النحو واحداً ثم يقول تأتي للملك والاختصاص وكذا وكذا ويورد لكل معنى شاهداً، ثم يقول وتأتي للأكل، قال الشاعر:

لما مددنا لأكل منه أيدينا
كادت لتأكلنا من دونه النار

وقد سمعت أبياتاً تتعلق بهذه اللام لبعض خصومه لا أستحضرها منها قوله:

فاللحن واضحٌ إن ضُمّت وإن كُسرت
يقع، وإن فُتحت فاللحن قد وضحا

وبلغني أيضاً أن حامد بن محمد بن عبيد، وهو من أعيان آل باب أحمد ومن بيوتات العلم فيهم مرّ في سفره على حيّ من آل فاضل على ماء لهم، وكان مروره قريباً منهم بحيث يرونه ويعرج عليهم، ولا أدري ما سبب تجنبه إياهم، فنسبوه إلى التقصير، فنظم ذلك أبوبكر

في أبيات وزاد في الطنبور نغمة فقال:

الدهر ذو عجبٍ جم ومن عجبْه
تفريط بعض ذوي الآداب في أدبه
مـن ذاك أن فتىً بالأمس مرَّ بنا
تقاصرت رتب الفتيان عن رتبه
ثم ابتدرناه بالإحسـان قاطبة
وبالترحّـب والإجهـاد في طلبـه
لنـا رأي حرضـنا علـى زيارتـه
نرجو التـبرك من أجداده وأبه

ومما بلغني من ردهم عليه قول أحدهم:

هممت بالهجـو لا تبقي ولا تذر
أنـت الحطيئـة، لكن شـعره درر
إن الحطيئـة لما أن بغـى وطغـى
في الهجو أدخله في سـجنه عمر

وسألني عن أشياء كثيرة من أحوال بلادنا فأفدته عن بعضها وبعضها لم أفده عنها.

ولما أردنا السفر من مصر، أتاني برسائل وقصائد قالها في أهل المدينة وكانت جرت بينه وبينهم أشياء، فقلت له أعفني من هذا، فإني لا أحب أن أقدم على أهل

المدينة بهجائهم، فقال لست أنت الهاجي لهم، إنما هو لغيرك، فقلت أليس في المثل (الرواية اجدالها جيني) فقال صدقت وتركني.

ثم إنه أخذ لنا مكتوباً من حكومة القاهرة إلى محافظ السويس ليركبنا إلى جدة، ثم توجهنا إلى مكة، فقدمناها محرمين بالعمرة في آخر المحرم سنة ١٣١٩هـ، وقضينا عمرتنا ورجعنا إلى جدة، وركبنا في سفينة إلى رابغ، ثم منه إلى المدينة، على طريق الغائر (ثنيّة بطريق الهجرة) فأقمنا فيها، وأصابتني حمى المدينة، وطالت مدتها معي، وأقمت سنتي تلك وصحتي ليست على ما يرام، وكنت أحضر درس البخاري على الشيخ علي ظاهر الوتري البغدادي الأصل، وكان حسن التقرير، وأحضر دروساً فقهية على مشايخ مغاربة، وأتردد على الشيخ عبدالجليل برّادة أديب الحجاز وشاعره ولغويّه في وقته بلا نزاع، وكان لمستنشدي أشعار أهل شنقيط، وكان يقربني ويكرمني كثيراً، وأسمعه بعض شعره، واتفق لي في هذه السنة وأنا في المدينة أني رأيت النبي ﷺ في المنام

ثلاث مرات أو أربعاً، وليتني كتبت تلك المرائي في حينها خوف النسيان لئلا يداخلها نقص أو زيادة،إحداها رأيت كأني أمشي في طريق وأمامي شخصان يمشيان يبعدان عني أكثر من رمية حجر، وفي نفسي أنهما رسول الله ﷺ وأبوبكر رضي الله عنه يمشي إلى جانب الرسول متأخراً عن جانبيه، ورأيتني أتحرى أن أضع قدمي على مواطئ أبي بكر، ثم إنهما جلسا على شيء مرتفع على حافة الطريق حتى لحقتهما، فتلقاني رسول الله والتزمني، وهو يبتسم وأدار ذراعه الشريفة من وراء عنقي وقبض يده الشريفة على فمي بشدة حتى كاد يؤلمني، ثم أطلقني، وقال لي كيف يقول في صاحبكم... وهي أنه يعني رائية الأحول يمدحه بها، فأسمعته إياها أو بعضها، ومما استأنست به لصحة هذه الرؤيا أنني حين رأيتها كنت مصاباً بمرض في كليتي، وكان يخرج منها دم كثير، وكان ذلك عقب الحمّى التي أصابتني، ومن ذلك اليوم بدأت معي العافية بإذن الله، ولم يزل المرض يتناقص إلى أن زال بالكليَّة ولله الحمد، وقصيدة الأحول أولها:

طيف الخريدة زرت طارق مقصر
فارجع وراءك وامض أيّ مقصّر
هل تعترى بك أن قدمت مسرّة
قلبي وطيف محمد لا يعتري
حبّ إذا طرق الحبيب أفاده
أشهى محادثة وأحسن منظر
خير الأُلى حملوا الرسالة إن هم
عدوا وأجدرهم بعد الخنصر
فهو المقدم والموخّرُ غيرهُ
شتان بين مقدّم وموخّر

وهي طويلة، وكنت إذ ذاك أحفظها برمتها، ولما أصبحت قرأتها عند رأسه الشريف ﷺ ولما حان الحج حججنا وسافر صاحباي للمغرب ورجعت أنا إلى المدينة، وأقمت فيها سنة أخرى.

وكان في المدينة جماعة من الشناقطة يحاولون إخراج وقف لهم من يد رجل مصري ولّاه عليه بعض القضاة كانوا يحتاجون إلى حضوري معهم في أكثر الأوقات وشغلني ذلك طول السنة ولم نخرجه من يده إلا في آخر السنة.

وكنت أدرس البخاري على الشيخ علي ظاهر، وأدرس المشكورة وتفسير الجلالين في رمضان عليه أيضاً، وحضرت دروساً مختلفة غير منتظمة على مشايخ، وربما ذهبت إلى الكتبخانة لمطالعة بعض الكتب، وكان الشيخ أحمد بن الأمين العلوي الشنقيطي توجه نحو المشرق قبل توجهي بنحو سنتين، وحين كنت في المدينة كان هو في الأستانة وجرت بيننا مكاتبة، ومما كتبت به إليه قولي:

مِنِّي لأحمدَ في «فَروقَ» سلامُ
عطرٌ عليه من البهاءِ لِثامُ

يُزري إذا قرع المسامعَ لفظُه
وتأمَّلتْ مضمونَهُ الأفهام

بمُدامةٍ قد عُتِّقت في دَنِّها
ما لم تُعتَّقْ في الدِّنان مُدام

شُجَّتْ بماءِ غمامةٍ في أبطُحٍ
بالليلِ غادَره وسارَ غَمام

وبعَرْفِ روضٍ في يَفاعٍ مُشرفٍ
جادَتْه من نَوْءِ السِّماكِ رِهام

وعليكَ من بعد السَّلام تحيَّةٌ
ومن الإلهِ تحيَّةٌ وسلام

جزيت بخير على الأيام إن
سمحت لنا بلقائك الأيام

فأجابني بأبيات من بحرها وعلى رويّها، لا أستحضر الآن منها إلا قوله:

من ماجد يبني القصائد فكره
مبنى تقاصر دونه الأهرام

وكنت أيضاً أكاتب الشيخ أحمد الشمس القاطن الآن في المدينة المنورة، وهو إذ ذاك في فاس ويكاتبني، ومما كتبت به إليه قطعة لا أستحضرها، أولها:

تحيَّةٌ تتلاشى دونها الكاسُ
ممزوجةٌ بزُلال الماءِ (والآسِ)
حَزَّتْ عُروق فؤادي من فراقِهمُ
فأسُ اشتياقٍ، وقد حازَتْهمُ فاس
يا أيُّها الناس إني لستُ ناسيَكم
فلا تكونوا إذًا ناسِيَّ يا ناس
ليستْ بآنسةٍ عيني بغيركم
وليس من دونكم للقلب إيناس

ولم أزل على ذلك إلى أن حان الحج فحججت، وكان عزمي التوجه بعد الحج إلى الشام ثم إلى المغرب، ولكنني التقيت في مكة بشيخنا أحمد سالم بن الحسن الديماني

ولم أجتمع به قبل ذلك وكنت أسمع به، وهو صديق لوالدي فمرّ في الحج، فأقمت معه بعد الحج لمرضه، وطال عليه المرض فأخذته وحملته إلى الطائف، وذُكر لنا أن الشريف زيد بن فواز (من أشراف الطائف من آل عون) عنده إبل كثيرة، فأحببنا تجربته بحليب الإبل، فذهبت إلى زيد في بستان له خارج الطائف، وأخبرته بالحال، فقال مرحباً، ارجع فأت به، فأتينا به، فأكرم نُزُلنا وعاملنا الشيخ بالحليب، فعافاه الله تعالى، فأردنا السفر ومنعنا الشريف زيد، وكان أتى بنا وأعجبنا كثيراً فأقمنا عنده مكرمين، وشرعت أقرأ على الشيخ، وأحضر لنا الشريف ما أردنا من الكتب، فقرأت عليه جانباً حسناً من أقرب المسالك (إلى مذهب الإمام مالك)ومنظومة البدوي الشنقيطي في أنساب العرب ومنظومة في المغازي النبوية.

ولم نزل عند الشريف إلى أن حان الحج فحججنا، وكنت عازماً على الرجوع إلى المغرب تلك السنة،إلا أنه قدم علينا حجاج من بلادنا، وذكروا لنا فتناً حدثت في البلاد، فصارت سبباً لدخول فرنسا إلى شنقيط، فتأخرت أنا لأجل ذلك أنتظر انتهاء الفتنة، وسافر الشيخ

إلى المدينة، وكان عزمه التوجه إلى المغرب، ولكنه رجع من المدينة لأمور عرضت له، ولم يزل في مكة والطائف، إلى أن توفي بمنى أيام الحج سنة ١٣٢٥هـ.

ثم إني لما سافر الشيخ الشنقيطي إلى المدينة المنورة، ابتدأت من ذلك الوقت بطلب العلم على العلامة الشيخ شعيب بن عبد الرحمن الدكالي المراكشي ولازمته مدة، وكنت أحضر أكثر دروسه مع تنوعها، ومما قرأته عليه ألفية بن مالك بتمامها متعددة من تلخيص المفتاح، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني بتمامها، ومجُمَلٌّ من مختصر خليل بتوطئة، وبعض مختصر ابن الحاجب في الأصول، وسمعت منه شمائل الترمذي بتمامها مرتين أو ثلاثاً والشفاء للقاضي عياض بتمامه، وصحيح مسلم إلا كتاب الصلاة منه أو بعضه، والنصف الأول من سنن أبي داود وكثيراً من سنن النسائي وأكثرها من غير توال، وحضرت عليه دراية شمائل الترمذي بتمامها، وكثيراً من صحيح البخاري، ومن الموطّأ بلا توال، وشرح البيقونية (في الحديث) للزرقاني، وكثيراً من التدريب وشرح

(عبدالرحمن) العضد في الوضع وجملة من أول المطول (في المعاني) لسعد (التفتازاني)، وجملة من الشاطبية (في التجويد) وأشياء غير ذلك، وكانت مجالسه كلها فوائد، وكان يدنيني ويختصني من بين الطلبة ويراجعني في ضبط الألفاظ اللغوية، وفي أنساب العرب والمغازي، وانتفعت به كثيراً، وكان يحثني على اقتناء كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ومطالعتها، ويقول لي ما ظفرت به من كتبه فعضّ عليه بالنواجذ، وكان يحثني على العمل بالحديث إذا صح واتضح معناه، ولم يظهر فيه ما يمنع من العمل به وإن خالف المذهب، وكان هو يعمل ذلك، ولم يكن لي في أول أمري اعتناء بمصطلح الحديث، وضرّني ذلك ضرراً كبيراً، وفوّتني مشايخ كثيرين، وأوقاتاً كان يمكنني أن أسمع فيها كثيراً من كتب الحديث من طرق شتى، وأنا ألتفت إليه أخيراً فتبين خطئي وتقصيري وندمت ولات ساعة مندم.

ولم أشتغل بمكة على غير الشيخ شعيب، إنه أيضاً تقصير مني، إلا أنه سافر إلى المغرب وكنت أقرأ على الشيخ أحمد سالم بن الحسن الديماني الشنقيطي المتقدم

الذكر، قرأت عليه جملة أقرب المسالك في الفقه والبيان والبديع من التلخيص، وأكثر منظومة ابن الشنقيطي في العروض والقوافي وذاكرته في شروح الكافي، وقرأت أيضاً السلم في المنطق على الشيخ أحمد التكروري، وقرأت أيضاً كثيراً من ألفية السيوطي في النحو، واستفدت منه ومن ابن أخيه في المذاكرة أشياء كثيرة، وتعتريني فترات في بعض الأحيان يذهب فيها كثير من أوقاتي، وكذلك كنت أتردد على الشيخ عبدالجليل برادة المدني، وكان سكن مكة والطائف وسمّعت عليه قليلاً من الحديث وأجازني مرويّاته الحديثية وكتب لي بذلك، وأكثر ما كان يُقرأ عليه كتب الأدب، وسمّعت عليه كثيراً من ديوان البحتري وكثيراً من ديوان المتنبي وكثيراً من طبقات الشعراء للجمحي وبعض المعلقات ورسالة الملائكة للمعرّي وأشعاراً غير ذلك.

وكنت أقرأ منظومة البدوي الشنقيطي في أنساب العرب، أحفظها غيباً وطالعت معها حين كنت أقرؤها جملة من كتب الأدب مطالعة تأمّل، وكامل ابن الأثير، وخزانة الأدب للبغدادي، ومجمع الأمثال للميداني، والعقد الفريد

لابن عبد ربه وغير ذلك، وصارت لي في ذلك معرفة حسنة، حتى إن الشيخ أحمد الشنقيطي بعدما كنت أقرأ عليه الأنساب صار يرجع إليّ فيه، وحتى إنه طلب مني أن أشرح نظم البدوي، وأكد عليّ في ذلك لما رأى مني معرفتي بالأنساب وأيام العرب، فاعتذرت باشتغالي بطلب العلم ، وأن ذلك يقطعني عمّا أنا بصدده، وكان يقول لي إني أرى أنك لو تصدّيت للكتابة على هذا النظم كان ذلك من أفضل أعمالك، وكنت أقول له لعلي أفعل ذلك في وقت غير هذا، إن شاء الله.

ولما ثبت قدم فرنسا في شنقيط أزمعت المقام وصرفت النظر عن الوطن ، وفي أثناء إقامتي في مكة والطائف توفي الشريف عون، وتولى ابن أخيه الشريف حسين، فأشار علي الشيخ شعيب بالسلام عليه كغيري، وكان يعرفني يوم كنا عند الشريف زيد، فعملت قصيدة أنشدتها بين يديه فاستحسنها.

وكنت أكاتب أهلي، وترد علي منهم مكاتيب يحثوني على الرجوع إليهم، وممن كتب إلي بذلك المختار بن

المعلّى، وضمّن كتابه أشعاراً له وبعضها لغيره، وضاع مني كتابة ما كتبت به إليه، مثل قولي:

تمرري العقل فاربعي
قليلاً ولا تخشي فوات مغيب
ونمت في بين عقله مالك
وارس الحمار طال عهدهم بي
وقد كان في الإمكان تحميله الصبا
ولكنها ليست بذات دؤوب

ومنها:

أخلاّئي إني جازم بإصابتي
بما خلفتموني فيه غير مصيب
فلا تنكروا تطلابي العلم نائياً
فما النأي في تطلابه بعجيب
ولا منها علم الحديث فإنه
بهاتيكم الأقطار جدّ غريب
ذاك الذي في البحث عن أمهاته
باسنادها باعدت كل قريب
وأوقف في تطلابه طالباً
وفي محبته فارقت آل حبيب
وأسأل ربي أن يوفقني وأن
يسدد أمري وهو خير مجيب

وفي سنة ١٣٢٦هـ، سافر الشيخ شعيب إلى بلاد الترك، وكان حين سفره يقرأ عليه طلبة من قازان مقامات الحريري، وكنت أحضر معهم وسافر قبل أن يتمّها، وأمرني بإتمامها لهم ففعلت، وطلبوا مني أن أقرئهم ألفية العراقي في مصطلح الحديث، فأقرأتهم جملة من أولها، ثم سافرت إلى الهند، ثم منه إلى عُمان،ثم منه إلى البحرين، ولم يتيسر لي الحج.

وكنت اجتمعت في الهند بالشيخ عبدالوهاب الزيّاني من أهالي البحرين، فقال إن قدر الله مرورك بالبحرين، وليكن نزولك عندنا، فنزلت عليه وأكرم مثواي غاية الإكرام، وكتبت للشيخ شعيب من البحرين أُعلمه بأني متوجه إلى الأحساء، وقد توجهت ونزلت في مدرسة الشيخ أبي بكر الملّا، وكنت أحضر دروس الشيخ عيسى بن عكاس، وكان يقرأ عليه عدة دروس من فقه الحنابلة والمالكية، ودرساً من النحو والفرائض وأصول الدين، وقرأت عليه بعض بلوغ المرام وبعض منتقى الأخبار وشيئاً من الفرائض، وقرأت نبذة من أقرب المسالك على الشيخ عبدالعزيز بن

حمد بن مبارك (المتوفى عام ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م)[1] وطلبت من عمه الشيخ إبراهيم أن يجعل لي درساً فأبى من أجل قراءتي على الشيخ عيسى بن عكاس، وكان يقول لي يكفيك الشيخ عيسى، وكان البعض (......) يمنعون من يطيعهم من الطلبة من القراءة عليه (......) وفي هذا المعنى أشعار سمعناها آنذاك، منها قول الشيخ عبدالله بن علي بن عبدالقادر (المتوفى عام ١٣٤٤هـ) في قصيدة له يذكر فيها صديقاً بما يعتقدونه فيه:

لحى الله بدعيّاً يحاول سنّ
إحياء بدعته ماكاد ينهار
يقول هذي فروع ضل آخذها
وإنما هي قرآن وآثار

وهو من أمثل من رأيناه في الأحساء، ينظم الشعر الحسن، وقد أسمعني جملة من شعره، وكان سخياً، حسن الصلاة، متأنياً في الكلام، متثبتاً في ضبط الألفاظ اللغوية، ويقال إنه متساهل في الفتوى، وبسبب

(١) هو والد د. راشد المبارك صاحب منتدى الأحدية في الرياض.

هذا الميزان الذي اصطلحوا عليه (.....) قام عبدالعزيز العْلِجي[٢] وأسمعني كلاماً خشناً في مسجده وأفحش القول،كما حثنا مراراً في مسألة العمل بالحديث وتقديمه على أقوال الفقهاء، ومنه:

وما كان غض الطرف منا سجية

ولكننا في مذمج غرباء

وهذا العلجي أحد شعرائهم، وشعره وسط، وقد سمعت منه بعضه وبعضه من غيره (.....) وفيه مع ذلك سخاء، وله مشاركة في بعض العلوم في الجملة، ومن أحسن ما امتاز به عن أهل الأحساء أن له يداً في الصرف.

وليس الكلام في الأحساء وأهله من غرضنا الآن، وكان الشيخ عيسى بن عكاس مما علم من حديثي يقول لي: إنك ستلقى أذيّة كثيرة فاستعد لها، وكنت أقول له: اللّٰه يرزقنا الصبر ويكون في عوننا.

(١) ورد في الأصل (علي بن عبدالعزيز) وهو شاعر وفقيه أحسائي، توفي عام ١٣٦٢هـ-١٩٤٣م.

ثم إني جاءتني مكاتيب من الشيخ شعيب يأمرني بالتوجه إلى العراق، وكان مزعل باشا السعدون بنى مسجداً ومدرسة بالزبير، وطلب من الشيخ شعيب أن ينتصب فيهما، فلم يجبه لذلك، ثم طلب منه أن يوجه إليه من يرتضيه، فكتب إلي يأمرني بالتوجه لهذه الغاية، ولولا أن الشيخ أخبرني أنه عازم على التوجه إلى المغرب حين كتب إليَّ لراجعته في المسألة ولسألته أن يعفيني من ذلك، لأني في نهمة لطلب العلم وعليّ قصور في أشياء كثيرة والتوظف يمنعني من إتمام الباقي عليّ من العلوم، (.....) والذي كنت أخاف منه وقع، حيث لم يمكن مراجعة الشيخ ولا عدم امتثال أمره، فتوجهت وأنا كاره في صفر سنة ١٣٢٧هـ مع الشيخ عبدالعزيز بن حمد آل مبارك الأحسائي من الأحساء إلى البحرين، ونزلت أنا على الزيّاني ونزل هو على ابن عم له هناك، ثم ركبنا جميعاً إلى الكويت، وحين وصلناه بلغنا خبر وفاة مزعل السعدون فهممت بالرجوع من الكويت ولم يزل بي عبدالعزيز حتى سافرت معه إلى البصرة، فوجدنا

إبراهيم بن مزعل وأحمد الصانع وصبي مزعل وقد وظّفا في المسجد والمدرسة مغربياً يقال له محمد بن رابح، وخرجت من البصرة إلى الزبير، وكنت في ضيافة علي بن عبدالله بن عبدالرحمن البسام وإخوته، وكان عزمي التوجه إلى مكة فيما بيني وبين الحج.

وحينما كنت في الزبير طلب مني بعض الطلبة أن أرتّب لهم دروساً بعضها عام وبعضها خاص، ففعلت، فرغبوا في إقامتي وتركت الحج تلك السنة وتزوجت، واستمررت أدرس في ثمانية مساجد متفرقة في البلد،لكل واحد يوم معين وللثامن له ليلة معينة، والقصد من ذلك تعميم التذكر، وكان هذا الترتيب باتفاق من جماعة من أول البلد، وكان الناس يأتون المسجد الذي فيه الوعظ من أطراف البلد ويتساءلون ؛ أين الوعظ اليوم؟ ويتسابقون إلى قرب الكرسي الذي أجلس عليه للوعظ، إذ ليس ثمة واعظ غيري.

وكان المسجد الذي فيه الوعظ يمتلئ حتى يضيق بالناس ويجلسون بالشمس، فثقل ذلك على بعض أئمة

المساجد فجرت علي بسبب ذلك محنة،حاصلها أن أهل الزبير على جانب عظيم من الجمود على التقليد وعلوم الحديث، وأصول الفقه عندهم مفقودة وكنت في دروسي العامة أورد الأحاديث الحاثة على التمسك بالكتاب والسنة، وأقرر حكم المذهب وعدم لزمه، ونحو ذلك من الأمور التي لا تلتئم مع مذاقهم، مع ما انضم إلى ذلك من حسد جملة من أئمة مساجدهم وبعض المنتسبين إلى العلم، فهم بسبب إقبال العامة وازدحامهم على دروسي الوعظية، فقام عليَّ منهم لفيف قومة تعصيب، ومن مقدميهم: عبدالله بن حمود قاضيهم أو محكمهم، والمكينزي إمام مسجد ابن إبراهيم، وابن دبيكل إمام مسجد الحزم، ومنهم ابن عبدالجبار إمام مسجد الرشيدية، وكان الجملة أعقل من الباقين وأقل منهم طيشاً، واستعانوا بأناس أهل نفوذ، منهم إبراهيم بن زهير ومحمد بن مشرّي وغيرهما، وأنهوا أمري إلى مدير الحكومة، وقالوا له: إن هذا المغربي يلزم إبعاده من هذه البلدة، فإنه مثير فتن يقدح في الحكومة، ويحرض الناس على القيام عليها، ويقدح في الأئمة الأربعة ويعترض على مذاهبهم، ويسيء

إلى سيدنا الزبير ﷺ، ونحو هذا الكلام.

وكنت أنا في دروسي العامة أُكثر الاعتراض على الحكومة العثمانية بإحداث القوانين المخالفة للشرع وإهمال الحدود الشرعية وإقرار الفواحش مع التمكن من إزالتها، وغير ذلك من أحوالها السيئة، وأُكثر الإنكار على ما يفعله جهلة أهل البصرة وغيرهم عند قبر الزبير والحسن البصري وغيرهما، وكان يصدر مني هذا الكلام ونحوه في محافل عامة تشتمل على المحب والمبغض ومن يعرفني ومن لا يعرفني، ولهذا حاول الخصوم الدخول علي من هذا الباب، أقرب طريق يوصلهم إلى مطلوبهم لكثرة من يشهد علي بذلك، إلا أن سعيهم لم يوافق نجاحاً أمام المدير، فإنه كان يحجهم، وكان يحب التثبت في الأمر، وجعل له جواسيس يحضرون دروسي، وكان هو بنفسه في بعض الأيام إذا علم أني شرعت في الدرس دخل المسجد وجلس حيث لا أراه إلا أنني أنا تجنبت ذكر الحكومة منذ حدثت الفتنة، ولم يسمع مني المدير ولا جواسيسه شيئاً ينكرونه.

وأما إبراهيم بن زهير، فإنه أيضاً قال: لا يمكنني الحكم على هذا الرجل من غير أن أسمع منه؛ لأرى بنفسي شيئاً أستند إليه وسأحضر درسه، وبالفعل حضر ولم يحضر مجالسي قبل ذلك، وسمع ما أعجبه وخرج من المسجد وهو ينفض يديه يقول حسبي الله عليهم، هذا الذي يريدون إخراجه من البلد، وأما ابن مشوى فإنه شد أزرهم في الجملة ولم يحصل لهم منه كبير فائدة، ولما رأوا أن المدير لم يصنع لهم شيئاً قدموا له عريضة لا أعلم مَنْ كتبها منهم ولا من باشر تقديمها للمدير؛ مضمونها: يا حضرة المدير، إذا لم تخرج هذا الرجل من البلد يوشك أن تقع فتنة تبلغ الدماء إلى الركب، وأنت المسؤول عن ذلك، فخاف المدير عاقبة الأمر.

فلما اجتمع عنده كبراء أهل البلد أعلمهم بالقضية، وقال أخبروني عن هؤلاء المشايخ، أيهم المخطئ حتى أردعه؟ فقال له إبراهيم بن زهير: يا حضرة المدير، هذه المسألة علمية دينية لا علم لنا بها، وهذا ابن عوجان نعتقد علمه وصلاحه وخلوه عن الهوى، فإن رأيت أن تذهب إليه وتسأله كان أحسن ونحن معك على ما يرشدك إليه،

واستحسن المدير رأيه وبلغ خبر العريضة الشيخ صباح بن محمد بن صباح، فذهب حالاً إلى المدير ولم تكن له عادة بالتردد إليه قبل ذلك فقابله المدير بالاحترام، ولما جلس طلب من المدير أن يطلعه على العريضة التي جاءته فلم يفعل خوفاً من انتشار الفتنة، فقال له صباح: يا حضرة المدير، لا يخفى عليك أن لنا في سدة هذا البلد بضع عشرة سنة ولم نتداخل قط في أمر مما يجري بين أهل الزبير ولا اشتكينا إلى الحكومة من أحد ولا اشتكى منا أحد، والآن جرت هذه القضية بين هؤلاء الشيوخ ورأينا أهل البلد أنهم تحاملوا على هذا الرجل الغريب تحاملاً غير لائق، فرأينا أنه يجب علينا ديناً ومروءة أن نتداخل في هذه القضية حتى تجري على سبيل العدل والإنصاف، فإن رأيت أن ترسلهم جميعاً إلى البصرة ليعقد لهم مجلس بنظر القاضي والمفتي فلا بأس، وأما كون هذا الرجل الغريب يجري عليه شيءٌ من نفي أو حبس أو غير ذلك من دون أن يثبت استحقاقه لذلك، فهذا لا يقع ما دام يمكننا الدفاع عنه بجاهنا ومالنا فليكن معلوماً لديكم، ثم انصرف.

وفي الحال أرسل إليَّ رسولاً يقول لي يسلم عليك الشيخ صباح، ويقول لا تقلق ولا تخف، فلن يجري عليك شيء إلا بعد المباحثة والتحقيق، والظاهر أنه لا يقع شيء أصلاً إن شاء الله، فلما سمع مَنْ كان حاضراً عند المدير من الخصوم وأعوانهم كلام الشيخ صباح علموا كلهم أنهم لا يحصلون على طائل؛ لأن صباحاً أثقل منهم وزناً عند الحكومة وعند العامة، فصار كما قيل: مثل البغاث خَشَيْنَ وقع الأجدل (شطر بيت لدريد بن الصمّة).

ثم إن المدير ذهب بنفسه إلى الشيخ ابن عوجان ودخل عليه وسأله عني، فقال له الشيخ: إن هذا الرجل لا يصدر إلا الخير ونحن نعرفه جيداً، وقد حصل منه نفع كثير للبلد، والقائمون عليه ما بين حاسد وجاهل غبي، فلا تلتفت إلى ما يقال فيه، وكلاماً نحو هذا.

فرجع المدير لمن عنده مطمئنَّ الخاطرِ، فلم يتعرض لي بشيء أصلاً، ولما رأوا أن سياسة العنف لم تنجح لجؤوا إلى سياسة اللين والرفق، وكان الواسطة في ذلك ابن عبدالجبار،أرسل إلي يوماً أنه يحب أن يأتيني في

بيتي ولا يكون معي أحد، فجاءني وحده وجعل يقنعني، ويّزين لي أن أترك هذه الخطة التي أنا عليها، ويقول إن ذلك أنفع لي، ويقول لي عن غاية قصدك استلفات أنظار الناس إلي حتى أتحصل على شيء من وأنا أن أكون متكلماً عن لسان حزب سياسي يرمي إلى غرض مجهول عندهم، وسمعت كل ما ذكر وقلت إني ليس لي غرض إلا تعليم الجاهل وتنبيه الغافل، وليس في وعظي ما يدل على طلب الدنيا ولا التداخل في أمور السياسة، وخرج من عندي بدون نتيجة.

ثم قال لي يوماً آخر - أنا ومحمد العسافي وشاكر البغدادي ونحن في المسجد - :إذا صلَّيتم فلا تقوموا فإن لي بكم حاجة، فتأخرنا بعد الصلاة حتى قام الناس، فجعل يكلمنا بنحو ما كلمني به سابقاً، ويقول للعسافي إنه بلغنا عنك كذا وكذا، وذكر أموراً مآلها السعي في نفي أناس من أكابر البلد وتمكن غيرهم وأنطر العسافي ذلك، وقال له أحب أن تجمعني بهذا الذي بلغك عني.

ثم أرسل إلي يوماً آخر يقول: إنني في البيت فجئته

وعنده أناس من الخصوم، منهم ابن حمود وابن دبيكل وأرسلوا إلى ابن مشرّي فحضر، وجرى بيننا كلام كثير، لا أقوم الآن على حفظه بلفظه ولا على ترتيبه، وأنا أذكر مضمونه، وكان أكثر الكلام مع ابن حمود ومن كلامه لما جاء ابن مشرّي.

تتمّـة المذكّـرات

بقلم الشيخ

ناصـر إبراهيم الأحمـد

قدّم عبداللطيف الدليشي لهذه الصفحات المكمّلة لمذكرات الشيخ الشنقيطي بالأسطر التالية:

«إلى هنا انتهى ما دُوّن في النسخة التي نقلت عنها الكلام المذكور بأعلاه، مع أن الحديث كما يبدو من سياق الكلام له تتمّة، إلا أنها غير موجودة، مما يدل على أنها إما ضائعة أو لم تقل، وقد أعياني البحث لأعرف تكملة البحث، فاتصلت بالدكتور محمد تقي الدين الهلالي زوج عائشة ابنة الشيخ، فلم أجد عنده خبراً، ثم اتصلت بتلميذه الشيخ ناصر الأحمد مدير مدرسة النجاة الأهلية من بعده فتفضل مشكوراً وأتمّ أحداث سيرته، وقد لخصت منها بعبارته حرفيّاً ما يلي:

«ولكن اللّه تعالى لما يعلم من حسن نيته، وطيب مقصده، رفعه عما رأوه به، وخفضهم لسوء نيّتهم وخبث طويّتهم، وكان أنصاره من أهل الزبير لشدة رغبتهم في سكناه بينهم والإقامة عندهم، أشاروا عليه بالزواج وأعانوه عليه، فتزوّج واطمأن للإقامة واستمرّ يدرّس ويعظ، ولكن لظروف طارئة سافر إلى الكويت، وأخذ هناك يعظ ويرشد، وكان يرى أن الوعظ في المساجد غير كاف لإنهاض أمة، بل يجب فتح مدارس تربّي الناشئة تربية صالحة، فبذر الفكرة في الكويت واستُجيب له، وبإذن من أميرها الشيخ مبارك الصباح وبمساعدته فُتحت أول مدرسة في الكويت سمّوها «المباركية» وأثّثوها، واستمرّ الشيخ هناك على وعظه وإرشاده حتى سنة ١٣٣٢هـ حين وقعت الحرب العالمية العامة واعتزمت إنجلترا احتلال البصرة، وكان الشيخ مبارك أمير الكويت يناصرهم ويُحبّذ سياساتهم، ولكن الشيخ كان يندد بساسة إنجلترا، ويكشف عن مخازيها، ويُحرّض عليهم الناس في مجالسه ووعظه، فأغضب ذلك الشيخ مباركاً وأوعز إليه بمغادرة الكويت، فغادر

إلى الزبير، وفيها التحق الشيخ بالمجاهدين مع الجيش التركي، ولما انسحب إلى سوق الشيوخ والناصرية انسحب معه، ولما عاود الأتراك والمجاهدون الكرّة جرت موقعة الشعيبة ثلاثة أيام، اندحر على إثرها الجيش التركي، فلما يئس الشيخ من الانتصار توجه إلى المملكة العربية السعودية، وحج في تلك السنة (١٣٣٣هـ) وبعده رجع إلى عنيزة، وبقي أكثر من سنتين يعظ ويُدرّس، ومن تلاميذه هناك الشيخ عبدالرحمن السعدي، ثم حصل ما اضطرّه إلى مغادرة عنيزة فيمّم وجهه جهة الكويت، وكان قد توفّي الشيخ مبارك وتولّى بعده ابنه الشيخ جابر، فرحّب به، وبعد فترة، توفّي الشيخ جابر وتولى بعده أخوه الشيخ سالم، وكان صالحاً ولكن أعداء الشيخ الشنقيطي من الحُسَّدِ أوغروا صدر الأمير عليه فأمره بمفارقة الكويت، ففارقها إلى الزبير، واعتزم الإقامة فيه، فباشر الوعظ والإرشاد، فانتفع به كثيرون، ثم بدأ يحثّ على تشكيل مدرسة. للعلوم الدينية والدنيوية، تربّي الجيل الصاعد تربية قويمة سامية، وبعد جهود متواصلة، وطَرْق شتّى الأبواب لإيقاظ الهمم الخامدة،

وتذليل جميع العقبات الرسمية وغير الرسمية، استطاع الشيخ بمساعدة المخلصين من أهل الزبير وعلمائها، فتشكلت لجنة مؤلفة من السيّد عبدالوهاب الطبطبائي والشيخ محمد العسّافي وسليمان السويدان وناصر الأحمد والشيخ محمد العوجان (والحاج عبدالمحسن المهيدب والحاج إبراهيم العبدالله البسام والحاج محمد العقيل وداود البريكان) والشيخ محمد السّند والشيخ محمد الشنقيطي.

تفرّعت من هذه اللجنة لجنتان للمناهج وللتأسيس، حتى حصلت اللجنة على إذن من وزارة الداخلية، في ٢١ أكتوبر ١٩٢٢م، كما جاء الإذن أيضاً من وزارة المعارف في ٨ كانون الثاني ١٩٢٣م، وسمّيت مدرسة «النجاة»، وقد أعان على إنشائها كثير من المحسنين والتجار ومحبي العلم والدين، بفضل مساعي الشيخ الشنقيطي وصحبه، وما زالت المدرسة تؤدّي رسالتها الثقافية والدينية والقومية بروح سامية عالية ثابتة، فتخرّج منها طلاب يشار إليهم بالبنان، مثال الدكتورين الأخوين عبدالله وعبدالعزيز البسام نجلي إبراهيم

البسام، والمحامي عبدالرزاق الحمود والشيخ ناصر بن إبراهيم الأحمد مدير مدرسة النجاة الآن، والأستاذ أحمد الحمد الصالح مدير غرفة التجارة بالبصرة، ومعظم الأساتذة والأطباء الزبيريين.

وقد ازدهرت هذه المدرسة، حتى طارت شهرتها في كثير من البلاد العربية المجاورة مثل الكويت والمملكة العربية السعودية، كل ذلك بفضل جهود الشيخ محمد الشنقيطي.

وقد أصيب بقرحة في أعلى فخذه أعجزت نطس الأطباء فتوفي في ضحوة يوم الجمعة ١٤ جمادى الآخرة ١٣٥١هـ الموافق ١٣ تشرين الأول ١٩٣٢م ودفن في مقبرة الحسن البصري، وقد أنجب ابنة تزوجها الشيخ تقي الدين الهلالي، وكان بعد تأسيس مدرسة النجاة للبنين سعى في تأسيس مدرسة للبنات، فلقي تزمّتاً وعنتاً كثيراً من العامة والمتعصبين ممن يتحرّجون باسم الدين، والدين أفسح من ذلك.

كان رحمه الله عالماً فاضلاً، إماماً باللغة، عالمًا بالشعر،

يحفظ الدواوين الستة، وكثيراً من شعر فحول الشعراء من جاهليين وإسلاميين، كما كانت له اليد الطولى في علم الأنساب، ويروي كتب الصحاح في الحديث ويحدث بها، ويدرس علم أصول الحديث وأصول الفقه.

أما خُلقه فكان عظيماً، فهو كريم يؤثر على نفسه، لا يرد حاجة محتاج يستطيع قضاءها، ولا يمسك شيئاً سوى كتبه، حليم لا يستفزه جهل جاهل، شجاع لا تنال منه المصائب، ولا النوائب، رحب الصدر، يتقبل البحث في أي موضوع، لا تأخذه في الله لومة لائم، يفهم الدين فهماً حقيقياً، من غير تزمت ولا تعصب.

ولم نعثر له على مؤلفاته إلا ما ورد من شعره، وما اختصرناه هنا من تاريخ حياته بخط يده وإملائه (يقصد مذكّراته) ويقع في سبعين صفحة، وقد أنجب ولدًا اسمه يوسف، وبنتاً تزوجها الشيخ تقي الدين الهلالي ـ كما مر معنا ـ وله ابن آخر يدعى «أمين».. انتهت تتمة الشيخ الأحمد.

***

ثم ختم الدليشي تلك المذكرات وتكملتها بالأسطر التالية:

«وإلى هنا انتهى ما أورده الشيخ ناصر الأحمد من إكمال تاريخ حياة شيخه محمد أمين الشنقيطي وسيرته، وبه ينتهي البحث آملين أن نكون قد استوعبناه من جميع أطرافه، مع علمنا بأن متابعة تاريخ حياة الشيخ الشنقيطي والإلمام بها لم تكن من السهولة واليسر بالأمر الذي يُظَنُّ، وذلك لعدة أسباب: منها صعوبة متابعة أسفاره وتحركاته، فهو دائب الحركة كثير التنقل،سيما وقد ظهر في ظروف صعبة كثيرة الاضطراب والمخاوف، والذي يتابع خط أسفاره ابتداءً من شنقيط إلى تنقّله بين مدن المغرب، كمراكش والصويرة والدار البيضاء ورباط الفتح وطنجة، ثم دخوله مصر ومنها إلى الحجاز، جدة ومكة، ويعود إلى جدة ثم إلى رابغ فالمدينة المنورة، ويسافر بعد ذلك إلى الهند ومنها إلى عُمان فالبحرين والأحساء، ثم يعود إلى البحرين فالكويت والزبير في العراق، ثم يعود إلى الكويت، وإلى حيث يغادرها مكرهاً إلى الزبير، ثم

يخفّ إلى بغداد ويتركها إلى السماوة فعنيزة، فمكة والمدينة ثم يعود الى نجد متنقلاً بين حائل وعنيزة، ثم يعود إلى الديار المقدسة والحجاز بمعية الشيخ أحمد الجابر، ويعود بعدها إلى القصيم، وبعد الهدنة يعرّج على الكويت، ثم يغادرها ثانية بالإكراه، حيث يستقر في الزبير، فهذا الخط البياني المتعرّج لأسفار الشيخ الشنقيطي وتنقّلاته حريٌّ بأن يتعب الباحث في متابعته.

هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى، تعترض المحقِّقَ أسماءُ الكتب ومؤلفيها التي درسها في المغرب والحجاز والأحساء، وهو ينوّه بذكرها تنويهاً مقتضباً لا يكاد يفهم منه شيء إلا بعد التقصّي وطول المتابعة، وربما كانت هذه الكتب مشهورة في زمانه، وفي البلد الذي حلّ فيه، أما اليوم فتكاد تكون مجهولة غامضة، سيما ومعظم المكتبات هنا تفتقر إلى أمثال هذه الكتب المشهورة في الأندلس وبلاد المغرب، وربما حتى ما كان منها في مكة والمدينة.

والشيء الآخر الذي يحتاج من الباحث إلى جهد لا يستهان به من أجل مقارنة الأحداث، ومتابعة سيرة الشيخ بالنسبة لها، ما يذكره بعض المؤرخين من أحداث بالتاريخ الهجري وبعضهم بالتاريخ الميلادي فقط، وحتى لو قدر للباحث أن يحوّل السنين الهجرية إلى ميلادية أو بالعكس، فهناك ما يحدث من اختلاف في الأشهر؛ مما يجعل الحكم على الوقائع غير دقيق، كما أن اختلاف روايات المؤرخين وعدم توخي الدقة لدى بعضهم يجعل الباحث يعيد النظر في حكمه على الأحداث مرات ومرات.

وإلى غير ذلك مما ورد محرفاً بمذكرات الشيخ الشنقيطي بسبب عدم الدقة أو الجهل في النقل، ولكنا مع هذا لم نَألُ جهداً في التغلب على مثل هذه الصعاب،إضافة إلى ما أوردناه من تحليل للأنساب الغامضة في تجاي في بعض المسؤولين له، وعدم رغبتهم في احتمال صراحته؛ مما أدى إلى قلة راحته ومطاردته، الشيء الذي تسبب عنه عدم استقراره في بلد واحد

وكثرة أسفاره وضربه في البلاد، وذلك عدا ما أثير حوله من ضجيج حاسديه وجمود مناوئيه وجهل الناس به في سنين مليئة بالحروب والخوف والفوضى.

ولكننا نعود فنقول: لقد خرج من بين كل هذه المصاعب ناصعَ الجبين، مستقيماً على الحق، فلم يوارب ولم يداهن، ولم يمارِ، ولم يحِد عن طريق الدين الصحيح والإيمان القويم، فهو خالد في سيرته ومدرسته وطلابه، رحمه الله».. انتهى كلام الدليشي.

***

محمد الأمين الشنقيطي

من شنقيط إلى عنيزة والزبير

عبدالرحمن الشبيلي[(١)]

ظلت مدرسة النجاة بالزبير في ولاية البصرة (جنوب العراق) إحدى نقاط اهتمامي التوثيقي، منذ أن بدأت بتتبع سِيَر بعض الأعلام، حيث كانت الدراسة فيها واحدة من القواسم المشتركة بينهم، وشكلت إحدى مفردات التأثير في الحياة الثقافية في منطقة الخليج والأحساء ونجد بخاصة، بشكل قد لا يماثله إلا مدرسة الفلاح التي تأسست في جدة مطلع القرن الماضي بجهود مؤسسها محمد علي زينل.

ومن مدرسة النجاة تلك، اتسع الاهتمام ليشمل مؤسِّسَها

(١) محاضرة ألقيت في عنيزة عام ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، وفي نواكشوط عام ١٤٣٥هـ - ٢٠١٣م.

الشيخ محمداً الأمين الشنقيطي، الذي ساقته الأقدار من بلاد شنقيط فيما يسمى الآن موريتانيا، ليستقر فترة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ثم لتحذف به ثانية نحو الكويت والزبير وعنيزة، وليترك علامات ثقافية مشهودة في سير العديد من أعلام المنطقة ومشايخها ومثقفيها، وليتكرر ذكره في الكتب التي تناولت تاريخ الكويت وعنيزة والزبير، وغيرها.

ومن خلال الاهتمام بتاريخ المدرسة وسيرة مؤسسها، لفت نظري ما وجدته في تراث العلامة حمد الجاسر، من نبذ عن الشيخ الشنقيطي، كان من أبرزها نبذة موسعة نشرها في مجلة العرب (المجلد ٢٠) عن سيرة الشنقيطي، مشيراً فيها إلى أن عدداً من جيل التعليم المبكر في نجد قد تتلمذ عليه، ذاكراً من تلاميذه علامة عنيزة الشيخ عبدالرحمن السعدي وأستاذ الجيل التعليمي فيها صالح ابن صالح، ثم ذكر أن الشنقيطي كان على علاقة وثيقة مع هذه المدينة وأهلها، وتربطه صداقة عميقة مع وجيه عنيزة المعروف علي العبدالله العبدالرحمن البسام

المقيم بين عنيزة والبصرة والزبير، وأن الشنقيطي قد زار عنيزة مرتين وأقام بها نحو عامين وقابل الملك عبدالعزيز في منزل محمد السليمان الشبيلي، ثم أشار الجاسر في تلك النبذة الموسعة إلى صدور كتاب في عام (١٤٠١هـ - ١٩٨٢م) عن سيرة الشنقيطي من تأليف عبداللطيف أحمد الدليشي الخالدي من إصدار وزارة الأوقاف العراقية، وهو ما شجعني على تقديم هذا العرض، الذي يركز على بسط سيرة الشيخ الشنقيطي وعلى جهوده في تأسيس مدرسة النجاة، وعلى تفاصيل أسباب إقامته في الزبير وعنيزة بعد الحجاز.

والواقع أن الاطلاع على هذا الكتاب قد جلا غموضاً كان يحيط في ذهني، وبخاصة حيال تاريخ افتتاح المدرسة بالتحديد.

وتنبغي الإشارة قبل استعراض الكتاب وسيرة شخصيته، إلى أن هناك العديد ممن عرفهم الحجاز قديماً وحديثاً بهذا الاسم (محمد الأمين الشنقيطي)، ومنهم: الشيخ محمد الأمين (الجكني) الشنقيطي، المتوفى عام (١٣٩٣هـ

ـ ١٩٧٤م) في مكة المكرمة، وهو مؤلف كتاب «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»، وكان من تلاميذه الشيخ محمد العثيمين، لكن التفريق بينهم يكون أوضح من خلال تفصيل سيرته وصورته، حيث قد لا يكون بينهم من وشائج قربى أسرية.

كما تنبغي الإشادة بالجهد البحثي والتأليفي الأصيل الذي قام به المؤلف لاستقصاء جوانب سيرة هذه الشخصية، من خلال مراجعه التي بلغت الستين، ومن خلال مفردات عناوين محتوياته التي اقتربت من الخمسين، كما أن الكتاب وعنوانه: (الشيخ محمد أمين الشنقيطي: حياته، مذكراته، علاقته بملوك وشيوخ الجزيرة العربية) مخدوم بما يحتاج إليه الباحث من فهارس الأعلام والأمكنة والبقاع، والكتاب ـ بجودة تأليفه ـ يعد تتمة ثمينة للكتب العديدة والمتنوعة التي صدرت عن تاريخ الكويت والبصرة والزبير والقصيم.

كما أسهب المؤلف، بما يشبه عمل المحققين، من حيث الشروح والهوامش الموسعة والتصويبات، مما يزيد في

تقدير أصالة عمله وجديته، وكان وعد في ختام مقدمته بأن يواصل جهده التوثيقي في تدوين تراجم أولئك الذين عاصروا الشنقيطي، ممن لهم فضل في نشر الوعي الفكري في جنوب العراق، ذاكراً محمداً الخليفة النبهاني ومحمداً العسافي مثالين عليهم، وتمنى أن يكون كتابه بداية سلسلة تحت عنوان: من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة، إلا أنه على ما يبدو لم يتمكن من ذلك.

وفضلاً عما امتاز به الكتاب من جودة العبارة، وأصالة البحث، فقد أحسن المؤلف صنعاً بتخصيص الصفحات الستين الأُوَل من مؤلفه لإعطاء فكرة موسعة عن بلاد شنقيط (التي تعني في اللغة البربرية: عيون الخيل) جغرافياً وتاريخياً وسياسياً، وتقديم تفصيل لتركيبتها السكانية المكونة من العرب والبربر والزنوج، وأبان المؤلف شيئاً عن تاريخ موريتانيا (الاسم الذي أطلقه الرومان، وتعني بلاد المورو أي الرجال السمر)، وشيئاً عن تاريخ دخولها في الإسلام، مع وصول القائد عقبة بن نافع إلى شاطئ المحيط الأطلسي عام (٥٠هـ ـ ٦٧٠م).

ويبدو من فحوى الكتاب، أن المؤلف (الدليشي) قد عاصر شخصية الكتاب (الشنقيطي) حيث كان الأول طالباً في مدرسة الرحمانية بالبصرة في الفترة التي كان فيها الشنقيطي مديراً لمدرسة النجاة في الزبير بين عامي (١٣٤٣ ـ ١٣٥١هـ/ ١٩٢٣ ـ ١٩٣٢م)، وفضلاً عن معاصرته تلك التي جعلت من المؤلف يكتب عن شخصية معروفة في مجتمع بيئته، فإنه قد ارتكز في تأليف كتابه على مصادر عدة من أهمها:

١ ـ مذكرات الشيخ الشنقيطي (٧٠ صفحة) التي حررها بنفسه إبان إقامته في عنيزة عام (١٣٣٦هـ ـ ١٩١٥م) والتي لم تغطّ فترة إقامته تلك فيها وما بعدها.

٢ ـ التتمة التي أضافها تلميذه ـ وخليفته في مدرسة النجاة ـ ناصر الأحمد.

٣ ـ المعلومات التي استقاها المؤلف مشافهة من تلميذه محمد العساف وهو من أهل عنيزة المقيمين في العراق، والذي كان ممن لازم الشنقيطي طيلة فترة إقامته في العراق.

٤ ـ البحث الذي قام به المؤلف (الدليشي) عن تاريخ شنقيط وجغرافيتها (وهي البيئة التي نشأ فيها الشيخ الشنقيطي قبل هجرته إلى بلدان شبه الجزيرة العربية) يضاف إلى ذلك ما تتبعه المؤلف من شعر الشناقطة وثقافتهم الأدبية.

٥ ـ روايات شفهية من عدد من الشخصيات التي درست في مدرسة النجاة، أو عاصرت، أو كانت على علاقة صداقة مع الشنقيطي.

٦ ـ اقتباسات من كتاب تاريخ الكويت للمؤرخ والصحفي المعروف عبدالعزيز الرشيد، ومن كتاب التحفة النبهانية لمحمد خليفة النبهاني.

٧ ـ اقتباسات من مقال موسع عن موريتانيا نشرته مجلة العربي الكويتية في العدد (٢٥) من سنتها الثانية (١٩٦٠م) بقلم محمد عبدالله عنان.

٨ ـ نقولات من كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لمحمد أمين الشنقيطي (المتوفى ـ كما سلف ـ عام ١٣٣١هـ ١٩١٣م).

عاش الشنقيطي ستة وخمسين عاماً، أمضى منها ثلاثاً وعشرين سنة في النشأة وطلب العلم، ثم بدأ بالترحال بدءاً من بلدان المغرب (الصويرة ومراكش وطنجة والرباط والدار البيضاء) مروراً بمدن الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وبالكويت ومدن نجد (وبخاصة عنيزة) وانتهاءً بالزبير.

وبينما يشير الكتاب إلى رحلات قام بها الشنقيطي إلى الأحساء وعُمان واليمن والهند، فالكتاب لا يعطي تفصيلات عنها ولا عن دواعي سفره إليها مثلما أنه لم يعط معلومات كافية عن إقامته في الحجاز.

ولد الشيخ الشنقيطي عام (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م) في بلاد شنقيط (موريتانيا) لكن السيرة لا تتطرق إلى طفولته باستثناء ما ذكر عن وفاة أمه وهو صغير، وأنه حفظ القرآن الكريم قبل البلوغ، ثم انضم إلى حلقات الدرس لدى علماء بلدته، فدرس مجموعة متنوعة من كتب الفقه والنحو وشعر المعلقات.

وناقش الكتاب مسألة احتمال انتهاء نسب الشنقيطي إلى العلويين (الأشراف) وهجرة الحسنيين (الأدارسة) من الحجاز في حدود عام ١٦٩هـ إلى المغرب، ثم سرد الكتاب قصة إصابته بالجدري في حدود عام (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م) وسفره إلى مصر، ولقاءه بالعلامة محمد محمود التركزي الشنقيطي وزيارتهما معاً للشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية.

ثم يروي قصة أدائه الحج عام (١٣١٩هـ - ١٩٠١م) وإصابته بالملاريا التي أقعدته عامين في المدينة المنورة، ذاكراً بعض العلماء الذين درس عليهم، وكان من أبرزهم أديب الحجاز عبدالجليل برادة.

ثم عاد إلى مكة المكرمة، ليضطره مرض أستاذه وصديق والده الشيخ أحمد سالم بن الحسن الديماني إلى ملازمته حتى وفاة الديماني في حج ذلك العام (١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م)، لكنه استثمر إقامته تلك في الالتحاق بحلقات الدرس في الحرم الشريف، حيث توسع في دراسة النحو والحديث والأدب والمنطق والأصول والتجويد ونحوها في

حلقة العلامة المغربي شعيب بن عبدالرحمن الدكالي المراكشي (المتوفى عام ١٩٤٣م) وهنا يذكر المؤلف أن احتلال فرنسا لموريتانيا عام (١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م) قد دفع الشنقيطي إلى صرف النظر عن العودة إلى بلاده رغم حنينه إليها، وهو ما يصادف وفاة شريف مكة (عون) وتولِّي الشريف حسين حكم الحجاز وإعلانه الثورة العربية، وأورد الشنقيطي في مذكراته أنه نظم قصيدة في مدح الشريف حسين قال في مطلعها:

سلام أريج المسك من دون نشره

ويُنسي نديمَ الخمر صهباءَ خمره

ويُنسي من المحبوب وردةَ خده

وأجفانَه المرضى ودقةَ خصره

وختمها بقوله:

خذوها على علاَّتها وعليكم

سلام أريج المسك من دون نشره

لم يكن الشنقيطي مختلفاً عن غيره من علماء الشناقطة من حيث قول الشعر، لكنه كان يعترف بأنه لا

يعد نفسه في عداد الشعراء من أهل شنقيط.

ويورد الكتاب معلومة مختصرة يفهم منها أن عهده بالتدريس قد بدأ عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) في مكة المكرمة عندما طلب إليه شيخه شعيب الذي سافر إلى تركيا، أن يحل محله في تدريس طلبته من قازان مقامات الحريري، وألفية العراقي في مصطلح الحديث.

وهنا لابد مرة أخرى من الإشادة بالهوامش الغزيرة التي كان الدليشي يضيفها إلى كتابه للتعريف بكل الشخصيات والكتب والمواقع التي يمر على ذكرها، لدرجة قد تطغى أحياناً على متن الكتاب.

لكن الدليشي بقدر ما يثري الكتاب بهوامشه، فإننا نجده بأسطر لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة يختزل مرحلة مهمة لم تتجاوز عاماً واحداً من عمر الشنقيطي ينتقل فيها من الحجاز إلى الهند ثم عُمان والبحرين والأحساء، ويتلقى في الهفوف دروساً على يد الشيخين علي بن عكاس وعبدالعزيز بن حمد آل مبارك وينزل في مدرسة الشيخ أبي بكر.

إقامته في الزبير وتأسيس مدرسة النجاة:

لم تكن مصادفةً هجرةُ الشيخ الشنقيطي إلى الزبير بأكثر من طلب تلقاه من أستاذه الشيخ أبي شعيب للتوجه إلى هناك ليتولى إدارة مسجد ومدرسة بناهما الشيخ مزعل باشا السعدون في الزبير، حيث كان الشيخ أبوشعيب يزمع العودة إلى المغرب، فسافر الشنقيطي من الأحساء برفقة أستاذه الشيخ عبدالعزيز بن حمد آل مبارك، غير أنه بوصوله إلى الزبير سنة (١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م) وجد أن الشيخ مزعلاً قد توفي، وأن العلامة المغربي الشيخ محمد بن رابح قد اختير لإدارة المسجد والمدرسة، فحل الشنقيطي ضيفاً عند علي عبدالله عبدالرحمن البسام وإخوته، وكان ينوي العودة إلى مكة المكرمة، لكنَّ بعضَ الطلبة والأهلين في الزبير، يكتشفون مواهبه التدريسية ويلحون عليه بالبقاء في الزبير حيث ذاع صيته مدرساً وواعظاً ومرشداً، وشجعوه على الزواج في العام نفسه، فاقترن بأم أولاده لولوة بنت سلطان السلطان (الطويل) حيث أنجبا أربع

بنات وابنين بقي منهم يوسف وعائشة وميمونة.

لكن الشيخ الشنقيطي الذي ينغمس في أحداث السياسة في جنوب العراق وتجرُّه دوامة النزاع بين الإنجليز والعثمانيين في رأس الخليج، يضطر للتنقل بين الكويت ونجد وبغداد، ثم يعود ثانية نحو الاستقرار في الزبير، حيث تتلاقى رغبة الوجهاء من أهل الزبير لإيجاد موقع متميز لهم في محيط إقليمي يغمره الجهل والصراعات، فاتجهوا في عام (١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م) إلى المطالبة بإنشاء جمعية النجاة الخيرية التي صارت فيما بعد مظلة لتحقيق المطلب الأهم وهو مدرسة النجاة الشهيرة، كما أسّس في الزبير أيضاً مدرسة لتعليم البنات بناء على اقتراح ومؤازرة من عبداللطيف باشا المنديل.

وقد استغرق الحصول على الترخيص للجمعية نحو ثلاثة أعوام (١٣٤٢هـ - ١٩٢٢م) فاتجه أعضاؤها إلى طلب تأسيس المدرسة الأهلية، حيث صدر فسحها في ٨ كانون الثاني من سنة ١٩٢٣م، وقد تضمنت قائمة مؤسسي هذه الجمعية والمدرسة - بالإضافة إلى اسم الشيخ الشنقيطي -

كلاً من: عبدالوهاب الطباطبائي ومحمد العوجان ومحمد السند ومحمد العقيل وإبراهيم بن عبدالله البسام وعبدالمحسن المهيدب وداود البريكان ومحمد العساف وسليمان السويدان وناصر الأحمد وغيرهم.

اشتهرت المدرسة بقوة مقرراتها، وبكفاية معلميها الذين كان فيهم العراقي والمصري والمغربي، وبتنوع مناهجها، وهي وإن لم تتبع التعليم النظامي فإن خريجيها كانوا يقبلون في فصول عالية.

وكان ممن تخرج فيها في عهده الأخوان عبدالله وعبدالعزيز ابنا إبراهيم البسام والمحامي عبدالرزاق الحمود، والشيخ ناصر بن إبراهيم الأحمد الذي حل محله في إدارة المدرسة بعد وفاته، وأحمد بن حمد الصالح مدير غرفة التجارة في البصرة، وعبدالله محمد الشبل مدير شركة أبي الخصيب، الذي أكمل دراسته في الكلية العسكرية في بغداد (سنة ١٩٣٧م) ومحمد العساف السابق ذكره.

كما درس فيها في عهده أستاذ الجيل صالح بن ناصر

الصالح أبرز مؤسسي التعليم الحديث في عنيزة، وفي تقديري أنه درس فيها بين عامي (١٣٤٣هـ - ١٣٤٦هـ)، بقرينة أن الأستاذ صالحاً عاد عام ١٣٤٧هـ إلى عنيزة لينشئ مدرسته الأهلية، يرافقه شقيقه عبد المحسن.

ويبين كتاب: الزبير وصفحات مشرقة من تاريخه العلمي والثقافي لعبد العزيز الناصر (صدر عام ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)؛ أسماء من كان يدرس فيها حتى أواخر الستينات الهجرية، ومنهم كثير من أبناء البسام والذكير والسليم وغيرهم.

كما يوضح كتاب الناصر أن المدرسة قد جرى تأميمها في عام (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)، لتصبح ضمن منظومة المدارس الحكومية العراقية، بعد أن استمرت أربعة وخمسين عاماً.

زيارة عنيزة والإقامة فيها :

إذا كان توجُّه الشنقيطي نحو الزبير محض مصادفة، فإن اختياره التوجه نحو القصيم قد جاء دون تخطيط،

فلقد كان ـ هارباً من الإنجليز ـ حل في بغداد ضيفاً في منزل العساي في حدود منتصف عام (١٣٣٣هـ ـ ١٩١٥م) والتقى فيها بعدد من العلماء ومن بينهم محمود شكري الألوسي، لكنه ما إن أمضى بضعة أشهر، حتى خشي مرة أخرى من قبضة الإنجليز، فانضم إلى قافلة متجهة إلى نجد بدءاً بحائل التي حل فيها ضيفاً على أحد تلاميذه، وعقد دروساً في بعض العلوم لمجموعة من المشايخ والطلاب، ثم ارتحل إلى عنيزة ضيفاً على زميله في الدراسة الشيخ صالح العثمان القاضي، وكان ممن تبادل معه الزيارة على الدوام محمد السليمان الشبيلي أحد تجار عنيزة ووجهائها، وهنا يمكن إيجاز علاقته بهذه المدينة على النحو الآتي:

١ ـ أنه على ما يبدو زارها مرتين، وأقام فيها نحو عامين.

٢ ـ أنه في خلال إقامته التقى الملك عبدالعزيز، الذي محضه النصح بالابتعاد عن السياسة وعن مناكفة الإنجليز والتفرغ للعلم والدعوة.

٣ ـ أنه استثمر فرصة بقائه في هذه المدينة فكتب

مذكراته (٧٠ صفحة) التي استنسخها (سنة ١٣٣٦هـ) عبدالله العبدالرحمن البسام وسليمان الصالح البسام وعبدالله المحمد المنصور، ثم نقلها عنهم (عام ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م) أحمد حمد الصالح مدير غرفة تجارة البصرة، وقد قام تلميذه ناصر الأحمد بإضافة أهم الأحداث التي وقعت حتى تاريخ وفاة الشنقيطي.

٤ ـ والمعتقد ـ بما أن الشيخ عبدالرحمن السعدي كان أحد من تتلمذ على الشيخ الشنقيطي ـ أنه يكون استفاد منه في خلال إقامته تلك في عنيزة.

٥ ـ أنه التقى في عنيزة قبيل حج عام ١٣٣٦هـ بأحمد الجابر الصباح الذي تولّى حكم الكويت في رجب من عام ١٣٣٩هـ، وكانت تربطه مودة خاصة بالملك عبدالعزيز، فرافقه الشنقيطي لحج ذلك العام، وقد زارا الشريف حسيناً، الذي كان الشنقيطي مدحه بقصيدة سلفت الإشارة إليها، ويبدو أن الشنقيطي عاد من الحج إلى عنيزة مكملاً فيها إقامته.

٦ ـ لا يورد الكتاب في هذا السياق شيئاً عن علاقته بآل البسام في أثناء إقامته في عنيزة، سوى ما ذكر من

نسخ مذكراته، والغالب أنه تشرّب معرفته بالمدينة من خلال صداقته الوطيدة بوجهاء هذه الأسرة المقيمين في البصرة والزبير، علماً بأن بعض المصادر تشير إلى أنه كان في عنيزة في ضيافتهم.

٧ ـ لا تشير المراجع إلى أسباب مغادرته المفاجئة لعنيزة.

علاقته بالكويت وحكامها:

مع أن الشنقيطي لم يتخذ من الكويت مقراً لإقامة طويلة، لكن قصته فيما يتصل بإقامته في الزبير وعنيزة لا تكتمل دون المرور على ذكر الكويت وحكامها.

فلقد سبقت الإشارة إلى أن الشنقيطي، قد زج نفسه بمناصرة خاسرة للحكم العثماني في جنوب العراق، وبحضّ الأهالي على عصيان تأييد حكام الخليج وعربستان للإنجليز، بل لقد شارك فعلياً في معركتي كوت الزين في (٣٠/١٢/١٣٣٢هـ ـ ١٧/١١/١٩١٤م) والشعيبة في (٢٨/٥/١٣٣٣هـ ـ ١٢/٤/١٩١٥م) بين الإنجليز والأتراك، وهو ما جعل من وجود الشنقيطي في المنطقة، ومن تدخّله في

السياسة، ومن جهوده التحريضية؛ محلَّ تذمر الإنجليز وحكام المنطقة على حد سواء.

ويمكن تلخيص علاقة الشنقيطي بالكويت وحكامها بالنقاط الآتية:

١ ـ بعد مرور نحو أربع سنوات من استقراره في الزبير، وتحديداً في عام (١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م) جاءته دعوة من فرحان الفهد الخالد الخضير أحد مؤسسي الجمعية الخيرية في الكويت (التي كانت قد افتتحت في العام نفسه) وهي الجمعية التي دأبت على دعوة عدد من رواد الفكر الإسلامي (كالثعالبي ورشيد رضا ومصطفى المنفلوطي) وهنا ينفي الكتاب أي صلة للشنقيطي بتأسيس تلك الجمعية أو بإنشاء المدرسة المباركية (١٣٣٠هـ) وقد بقي الشنقيطي في الكويت عدة أشهر يعظ الناس ويرشدهم، ويبدو أنه وصديقه حافظ وهبة بدءا يتدخّلان في الشأن الداخلي الكويتي محرّضين الناس ـ ضد الإنجليز ـ على عدم تقديم الدعم للشيخ خزغل حاكم عربستان (صديق الشيخ مبارك) في مواجهة الجيش العثماني، وهو ما جعل

الشيخَ مباركاً يتحفظ على بقاء الشنقيطي في الكويت، ويتسبب في عودته إلى الزبير، مع ترك أهله حيث كانوا في الكويت.

٢ ـ وقد تكرر له الموقف نفسه مع الشيخ سالم المبارك الصباح في عام ١٣٣٧هـ الذي تولى الحكم في عام ١٣٣٥هـ بعد وفاة أخيه الشيخ جابر، فظن الشنقيطي الذي قرر الخروج من عنيزة (دون أن تظهر أسباب ذلك) أن نظرة الحاكم إليه قد تغيرت بانتهاء حكم الشيخ مبارك وبعد إعلان الهدنة بعد الحرب العالمية الأولى، وكان يأمل في أن يستقر في الكويت ويسهم في نهضتها العلمية، إلا أنه فوجئ بموقف أعنف من الشيخ سالم الذي ربما بلغه سفر الشيخ الشنقيطي للحج مع الشيخ أحمد الجابر من عنيزة كما سلف، فاضطر الشنقيطي للسفر إلى الزبير للاستقرار فيها.

٣ ـ لكن الشنقيطي الذي اضطر لمغادرة الكويت مرتين، يجد التعويض بعد أعوام في الموقفين الشعبي والرسمي، عندما دعي لزيارة الكويت والاحتفاء به وتكريمه والاعتذار له، حيث جاءت الدعوة هذه المرة في رمضان المبارك من سنة (١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م) من

النادي الأدبي، وكان حاكمها حينئذ هو صديقه الشيخ أحمد الجابر زميله في رحلة الحج من عنيزة عام ١٣٣٦هـ، وكان النادي قد تأسس قبل عام واحد، وتبارى في مدحه شعراء الكويت (من أمثال سليمان العدساني وعبداللطيف النصف) نشرت قصائدهم في الكتاب.

توجهاته الفكرية:

لا تظهر سيرة الشيخ الشنقيطي كما كتبها الدليشي أن له مدرسة فقهية ينفرد بها عمن سواه في عصره، بقدر ما كان مدرساً وواعظاً مستنيراً، ووسطياً في نهجه، منصرفاً للدعوة، ولم يرد في الكتاب ما يوحي بانتمائه إلى فرقة أو طائفة من الطوائف المنتشرة في عصره في مغرب العالم العربي أو مشرقه، كما أنه، باستثناء مذكراته المخطوطة وبعض قصائده، لم يخلف أي مؤلفات تذكر.

مذهبياً، كان الشيخ الشنقيطي مالكي المذهب كمعظم سكان شنقيط، والمعروف عن الإمام مالك أنه يأخذ

بالكتاب والسنة، ولكنه لا يهمل الـرأي، شأنه في ذلك شأن فقهاء الحجاز، إلا أنهم يردون بعض الأحاديث التي تعارض القرآن الكريم، أو تعارض أحاديث أكثر اعتماداً، وقد درس مذهب الإمام مالك على أيدي علماء أعلام في مكة المكرمة والمدينة المنورة، يقول الدليشي:

«إن الشنقيطي تتلمذ على أساتذة يؤلفون مدرسة إسلامية رصينة تتناول الفكر الإسلامي من أصوله.. وقد خرج بعلم صحيح، وفكر شامل في مصادر الدين الإسلامي من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، معتمداً في ذلك آراء أكابر المسلمين المفكرين الذين لا ترقى التهمة إلى سلامة عقائدهم، فنراه ينزع إلى الأخذ بآراء ابن تيمية وابن القيم وابن كثير والبقاعي ومحمد بن عبدالوهاب»... انتهى.

غير أن الشنقيطي لم يسلم من حسد بعض المحافظين الذين وجدوا في شعبيته وفي انفتاحه انحساراً في نظرة الناس إليهم، بل لقد تعرض للإيذاء الجسدي عندما أيَّد فتح مدرسة للبنات في الزبير إلى جانب مدرسة النجاة للبنين.

وكان يؤكد على التمسك بتعاليم الإسلام الصحيحة ونبذ المذهبية الضيقة وترك ما شاع من البدع والجمود الفكري.

زملاؤه ومعاصروه من العلماء:

إلى جانب من وردت أسماؤهم في ثنايا ما سبق من مباحث هذا العرض، أورد الكتاب ثُلَّة من أعلام عصره، الذين عرفهم أو التقى بهم، ممن كان الشنقيطي على خط مستقيم معهم في بث الوعي الديني، وقد اجتهدتُ في التعريف بأبرزهم:

حافظ وهبة: وهو أزهري مصري، كان من أصدقاء الشنقيطي عاش في الكويت، وشارك في تدريس العلوم الحديثة في المدرسة المباركية (١٣٣٠هـ) والمدرسة الأحمدية (١٣٤٠هـ) وقد التحق بديوان الملك عبد العزيز وصار من مستشاريه، ثم صار أول ممثل للمملكة في بريطانيا سنة (١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م) وتوفي عام (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).

عبدالعزيز الرشيد : مؤلف تاريخ الكويت، ومنشئ مجلة الكويت، عاصر الشنقيطي وزامله في فترة وجوده في الكويت، وترجم له في كتابه عن تاريخ الكويت، المعروف أن الرشيد، هاجر في السنوات الأخيرة من حياته إلى جزر الملايو، في نشاط دعوي وصحفي، لتوضيح حقيقة الوضع الأمني والسياسي المستقر في بلاد الحرمين الشريفين (توفي عام وفاة الشنقيطي ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م).

عبدالعزيز الثعالبي : الزعيم التونسي المعروف، زار الكويت عام ١٣٤٣هـ في العام الذي أقام فيه النادي الأدبي الكويتي حفل تكريم للشنقيطي، وهما يلتقيان في التوجه الفكري والدعوي (توفي عام ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م).

محمد رشيد رضا : صاحب تفسير المنار ومحرر مجلة المنار وتلميذ الشيخ محمد عبده، وهو عالم مصري الإقامة، عراقي الأصل، شامي الولادة، زار الكويت وزامل الشنقيطي (١٩١٣م)، وهو يعد أحد

رجال الإصلاح الإسلامي ومرجعاً للفتيا والتوفيق بين الشريعة والعصر، أسس مدرسة (كلية) الدعوة والإرشاد في القاهرة، له مؤلف بعنوان: الوهابيون في الحجاز، مطبعة المنار (١٩٢٤م) أشرف على طبع عدد من الكتب الدينية على نفقة الملك عبدالعزيز (توفي عام ١٩٣٥م في حادث سيارة بمصر) وصُلِّيَ عليه صلاة الغائب في المسجد الحرام.

محمد خليفة النبهاني: وهو شخصية طائية النسب مكية الولادة والمنشأ، تنقّل بين الهند والبحرين، ثم البصرة سنة (١٣٣١هـ - ١٩١٢م) صار عضواً في المجلس البلدي واشتغل في التعليم وفتح مدرسة سميت باسمه، وألف: التحفة النبهانية من عدة أجزاء، توفي في البصرة سنة (١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م).

محمود شكري الألوسي : تعرّف عليه الشنقيطي في بغداد، وقد ألف عنه د. محسن عبدالحميد كتاب: الألوسي مفسراً، كما ألف عنه محمد بهجت الأثري كتاباً عنوانه: محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية،

وهو مؤرخ وعالم دين وأدب، توفي عام (١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م).

والخلاصة أن كتاب عبداللطيف الدليشي عمل بحثي أصيل، ظفر بتحريره باحث من العراق يذكر عنه معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين: أنه ولد في عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) في قرية حمدان من قرى أبي الخصيب قرب البصرة وتوفي عام ١٤١٦هـ (١٩٩٥م) في بغداد، وعمل مديراً لأوقاف البصرة، وأن له عدداً من دواوين الشعر، والمجموعات القصصية، والروايات المترجمة، والمقالات المنشورة، كما نشر المعجم نماذج من شعره، ومن مؤلفاته: الألعاب الشعبية في البصرة، والأمثال الشعبية في البصرة (في جزءين صدرا عام ١٩٦٨م في بغداد).

وقد قدّم الكتاب إضاءات متفرقة على جوانب من حياة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي مؤسس مدرسة النجاة الأهلية في الزبير، تلك المدرسة التي اندمجت - كما سلف - في النظام التعليمي العراقي الرسمي،

بعد أن استمرت قرابة نصف قرن منارة علم مؤثرة أفاد منها كثير من أعلام التربية والتعليم والثقافة في منطقة الخليج والجزيرة العربية.

وكانت وفاة الشيخ الشنقيطي في الزبير في أعقاب إصابته بمرض لم يمهله، صباح يوم الجمعة ١٣٥١/٦/١٤هـ (١٩٣٢/١٠/١٣م) ودفن في مقبرة الحسن البصري بالزبير.